كامل كيلانى

وسيرته الذاتية

إعداد

عبد الرحمن بدوى

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

كامل كيلانى

وسيرته الذاتية

إعداد

عبد الرحمن محمد بدوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٩

الإخراج الفنى

فاتن رضا

إهداء

بمناسبة الاحتفال بالعيد المئوى لمولد رائد أدب الأطفال الأستاذ المرحوم «كامل كيلانى» ، حيث إن مولده كان فى العشرين من أكتوبر سنة ١٨٩٧ .

أهدى لروحه الزكية سيرته الذاتية لتعريف الأجيال الذين لم يعاصروه، بشخصه وأدبه، اعترافاً بفضله، لما قدمه من علم وعرفان

عبد الرحمن بدوي

أنفع الناسَ وحَسْبِي
أنني أحيا لأنفع
أنفع الناسَ ومالي
غير نفع الناس مطمع

كامل كيلاني

تقديم

بقلم: رشاد كامل كيلانى

ليس من السهل أن نحدد متى بدأ أدب الأطفال يأخذ مكانه بين ألوان الأدب المختلفة، فالأنواع الأدبية كما هو الشأن فى كل شئ يحيا ـ لا تولد كاملة. ولا تنشأ تامة، وإنما تتدرج فى نشوئها وتطورها، حتى تعلن وجودها، وتأخذ مكانها اللائق بها، ومؤرخو أدب الأطفال لايستطيعون إلا أن يضيفوا إليه ما وضع (عثمان جلال) من أزجال قصصية فى كتابه (العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ). وهى من الأدب المترجم، ولا يستطيعون كذلك إلا أن يذكروا أراجيز شوقى، تلك التى تتضمن حكايات وأساطير، أبطالها من عالم الحيوان.

كذلك مازال منا من يحفظ أو من سمع الأناشيد والأهازيج التى كان يترنم بها فى مكاتب التعليم ومدارسه، آباؤنا فى طفولتهم: مثل أنشودة العصفور الحبيس، التى يقول فيها:

الحبس ليس مذهبى ... وليس فيه أربى

ولست أرضى قفصا ... وإن يكن من ذهب

ومثل أنشودة استقبال الطائر التى يقال فيها:

أيها الطائر أهلا ... بمحياك وسهلا

فقت كل الطير شكلا ... زانه ذاك الهديل

وهناك أيضا تلك الحكايات القصار التى ترددت زمنا طويلا على ألسنة الأطفال من أهل الجيل الماضى أو الذى قبله.

وهل ننسى منها المثل الذى كان يبدأ بقوله:

يحكى أن غزالا عطش مرة.....

كل ذلك كان من بعض اللوامع التى مهدت لظهور رائدين فى أدب الطفل، أحدهما فى النظم. والآخر فى النثر، وإن كانت له فى الشعر مشاركة.

كلاهما كان فى الصف الأول من الأدباء، ولكنهما فى وعى مبكر ـ آثر كل منهما لنفسه أن يرتاد هذا الميدان الجديد فى محاولات جادة، وفى خطط محكمة.

واليهما يرجع الفضل الأول فى دعم أدب الأطفال وفى توسيع آفاقه.

والشاعر الذى نذر الجانب الكبير من فنه لأدب الأطفال هو محمد الهراوى، الذى افتن فى منظوماته شكلا وموضوعا.

فقد كان يختار من الأوزان الشعرية أيسرها حفظا وأخفها على السمع، وكان لتمكنه وأصالته يصطفى من مأنوس الألفاظ مايمتع الذوق، أما الموضوعات فقد كانت مستمدة من صميم حياة الطفل وملابساته منطوية على توجيهات حكيمة وفى المعاصرين لنا من لم ينسوا قوله:

أنا فى الصبح تلميذ   وبعد الظهر نجار
فلى قلم ومسطرة   وأزميل ومنشار

أما رائد التأليف للأطفال فى ميدان النثر، فهو: «كامل كيلانى».

ولقد كان اقتحامه هذا الميدان مغامرة، فإنه كان يشق طريقا جديدا وكان يمشى على أرض صلبة، وله عند كل خطوة عقبة.

ولعل حماسته لروائع الأدب العربى هى التى أوحت إليه أن يقتحم ذلك الميدان، فإنه لما قدم إلى قراء العربية أدب

«المصرى» و «ابن الرومى» «وابن زيدون» نصوصا ودراسات ـ هاله ألا يجد هذا الأدب مساغا إلا عند الخاصة من المتأدبين. فهفت نفسه إلى أن يستمتع بالأدب العربى أبناء الجيل الجديد من المثقفين ثقافة عامة، وهداه فكره إلى أن ذلك لايتحقق الا بتنشئة الطفل تنشئة يتزود فيها بما يقرب إليه تلك المناهل العذاب.

فمضى يكتب للأطفال مؤلفا ومترجما ومقتبسا ومقوما ومفصحا وأعنى بالتفصيح: نقل القصص والحكايات والأساطير من مروياتها أو من كتابتها الركيكة المسفة إلى بيان فصيح بلسان عربى مبين.

ولقد كان كامل كيلانى فى ارتياده لأدب الأطفال عالمى النزعة إنسانى الروح.

فلم يقف عند الشرق يحيى بدائع «ألف ليلة وليلة». «وطرائف جحا». «وأساطير الهند».

ولم يقتصر على الفكر العربى يدنى منه فلسفة ابن طفيل فى «حى ابن يقظان» وأدب «ابن جبير» فى رحلته إلى مصر والحجاز، وإنما تعدى ذلك إلى أساطير العالم وإلى أشهر قصصه فقدم «روبنسن كروزو» و «جيلفر»، ونخبة من روايات

«شكسبير». وكان كذلك عميق النظر، بعيد الأفق، يجعل التسلية في العرض القصصى سبيلا إلى الإفادة والتأثير.

فجاذبية القصة عنده وسيلة لا غاية.

ولذلك انطوى أدبه للأطفال على تربية قومية، وتقويم خلقى وتوجيه اجتماعى، إلى جانب توسيع المدارك بالمعارف والعلوم.

وهكذا قصد كامل كيلانى لمختلف هذه النواحى من الكتابة للأطفال، يلزم نفسه القيام بأعبائها جميعا:

كان يضع النماذج فى مخطط واف لما يجب أن يكون، حتى ترك ـ كما قال الأستاذ أنيس منصور فى مقال له بعنوان: «ألف كتاب اسمها كامل كيلانى».

والرواد فى كل ناحية من نواحى الاصلاح إنما يحسون بواعيتهم ويرون ببصيرتهم أن الوقت قد حان لعمل جديد.

فهم يعطون إشارة البدء، وحسبهم ذلك من فضل، وهذا ماكان فى شأن أدب الأطفال.

فقد زال من الأفكار وهم الترفع عنه، والتقى بذلك وعى المربين ورجال التعليم ورغبتهم فى أن يكون حظ الناشئين العرب من متعة القراءة والاطلاع حظ النشئ فى الأمم

المتحضرة، فأقبلوا يكتبون للأطفال، واستنار الطريق، وتعدد المؤلفون أو المشرفون على التأليف.

ومازلنا نظفر يوما بعد يوم بالكرام الكاتبين، حتى ليسعنا القول فى غير مغالاة. إن لدينا مكتبة للاطفال صالحة للتجديد والنماء والأزدهار.

ونحن فى هذا العهد الثورى الذى نحرث فيه أرضنا من جديد أحوج مانكون إلى أن نوجه عنايتنا إلى أدب الأطفال، ونجعل منها مادة تتحدد فيها المبادئ والأغراض والأهداف التى يتكون منها مجتمعنا الحاضر، فيجب أن تكون قصص الأطفال تصويرا للبيئة، وتمثيلا للروح، وتهيئة للحياة التى تقوم على دعائم من الصناعة والعلم.

وكذلك ينبغى أن تتطور الشخصيات الموروثة من الأساطير. فلا تكون شخصيات رعية وأفراد، وإنما تصور على أنها شخصيات شعبية يجد فى هذه الشخصيات أسوة له يقتدى بها فى مستقبله المرجو، فيقوم بدوره البطولى فى واقع الحياة التى يحياها، وفيما يحيط به من ملابسات.

وعلينا كذلك فى مرحلة التخطيط لأدب الطفل أن نقدم الأساطير العالمية لكل الشعوب لناشئتنا، وأن يطالعوا القصة الهندية، والقصة الصينية، والقصة الروسية، والقصة الإفريقية.

ولكن لا نترجم تلك الأساطير ترجمة تسئ إلى أغراضنا التربوية والقومية. بل نترجمها عن أصلها ونهذبها ونخليها مما يصور استعلاء بعض الشعوب على بعض، ونعلل مواقفها تعليلا يتمشى مع مبادئ الخير والحق والعدل والسلام، وإدراكا لتقاليد الشعوب وعاداتها، إدراكا يمكن من بث روح التعاون الإنسانى السلمى.

وفى طليعة ماينبغى الالتفات إليه أن نحدد ألوان الثقافات والمعارف التى يجب تبسيطها للطفل، حتى نكفل له تنمية كفاياته وايقاظ مواهبه، وحتى نوافيه بأمهات المعلومات التى تكون شخصيته السوية الواعية المستبصرة، إذ تكتسب من كل علم وفن وثقافة مايقوى خبرتها بالحياة، ويعينها على أن تزاول تجربتها فى عزم وتفاؤل وتشبث بالنجاح إلى أقصى غايات النجاح.

وأهم من كل ذلك فى تخطيطنا الفنى لأدب الأطفال أن تكون أحداث القصص، مقدماتها ونتائجها، وكذلك شخصياتها ـ الواقعى منها والأسطورى ـ قائمة على الصدق، فكلما كانت الأحداث صادقة على المجتمع، وكلما كانت الشخصيات صادقة على الناس من حولنا ـ كان التأثير إيجابيا، وكان العمل الأدبى ناجحا.

وإذا كان الخيال عماد القصة وجوهرها فإن الصدق يجب أن يكون رائد هذا الخيال الخلاق. أما الكذب على الحياة والأحياء فإنه يصطدم بواقع الحياة فى قوانينها الثابتة وتجاربها التطبيقية. وحينئذ يذهب أثر القصة فى النفس، ولايكون لها فى السلوك الإنسانى صدى.

وليس أسوأ من المغالاة فى تصوير البطولة. والمثل العليا دون ملاحظة الصراع النفسى بين الشر والخير، ودون مراعاة ماتقتضيه الحياة من عوامل الاغراء، فإن هذه المغالاة تجعل من البطولة شيئا بعيدا مناله، وترينا المثل وهما مسطورا لا وجود له فى الحقيقة.

فلابد فى أدب الطفل أن يرى الناشئة أحداثا تساير طبائع الحياة، ولابد أن يطالعواشخصيات يمكن أن تعيش بين الناس.

ومادمنا قد سمينا مانسلى به طفولتنا «أدبا» فيجب أن نتفق على أن لغة الأدب هى: **اللغة العربية الفصحى.**

وإذن فمن حق أدب الأطفال علينا أن يكون بلسان عربى مبين، وفى فصاحة العربية مجال عريض للكلمات المأنوسة، والجمل المألوفة مما يجعل التعبير أقرب إلى لغة الخطاب.

وليس من المنطق أن نسلى أطفالنا فى نشأتهم بكتب ومجلات عامية اللهجة. ونحن نعدهم ليعبروا عن خواطرهم

وأفكارهم تعبيرا عربيا فصيحا. ونعدهم كذلك ليقرءوا فى مراحل تعليمهم منذ المرحلة الاعدادية أدبا عربيا فيه مختارات لشعرائنا وكتابنا البلغاء.

تلك هى التنشئة التى لاتتفق مع مستقبل أطفالنا، فليكن قصارى مانقدمه فى أدب الاطفال من الناحية اللغوية التقريب بين المسموع والمقروء. والتدرج بالكلمات والأساليب إلى إعداد النشء اعدادا يتيسر به أن يستمتع بأدبنا العربى، ومافيه من روائع الفكر.

فإما أن ننشئه قارئا للعامية، ثم نطالبه بعد بقراءة البلاغة العربية، فذلك هو طلب المحال.

وإذا كان لى اقتراح فى النهوض بأدب الأطفال فهو: أن تنشئ الدولة مؤسسة لهذا الغرض. تشرف على هذه الناحية من حياتنا التربوية والثقافية. وأن يرصد لهذه المؤسسة مال لتنمية إنتاج أدب الأطفال، ودعمه، وتشجيعه.

وهنا ينفسح المجال للكثير من الخطط والمشروعات.

ولعل مايتخذ فى هذا الصدد أن يكون هنالك مشروع: «ألف كتاب للأطفال» على غرار مجموعة «الألف كتاب» فتتألف لجنة تختار كل سنة عددا من الكتب. وتكل ترجمتها أو تأليفها إلى من ترى كفايتهم للترجمة أو التأليف.

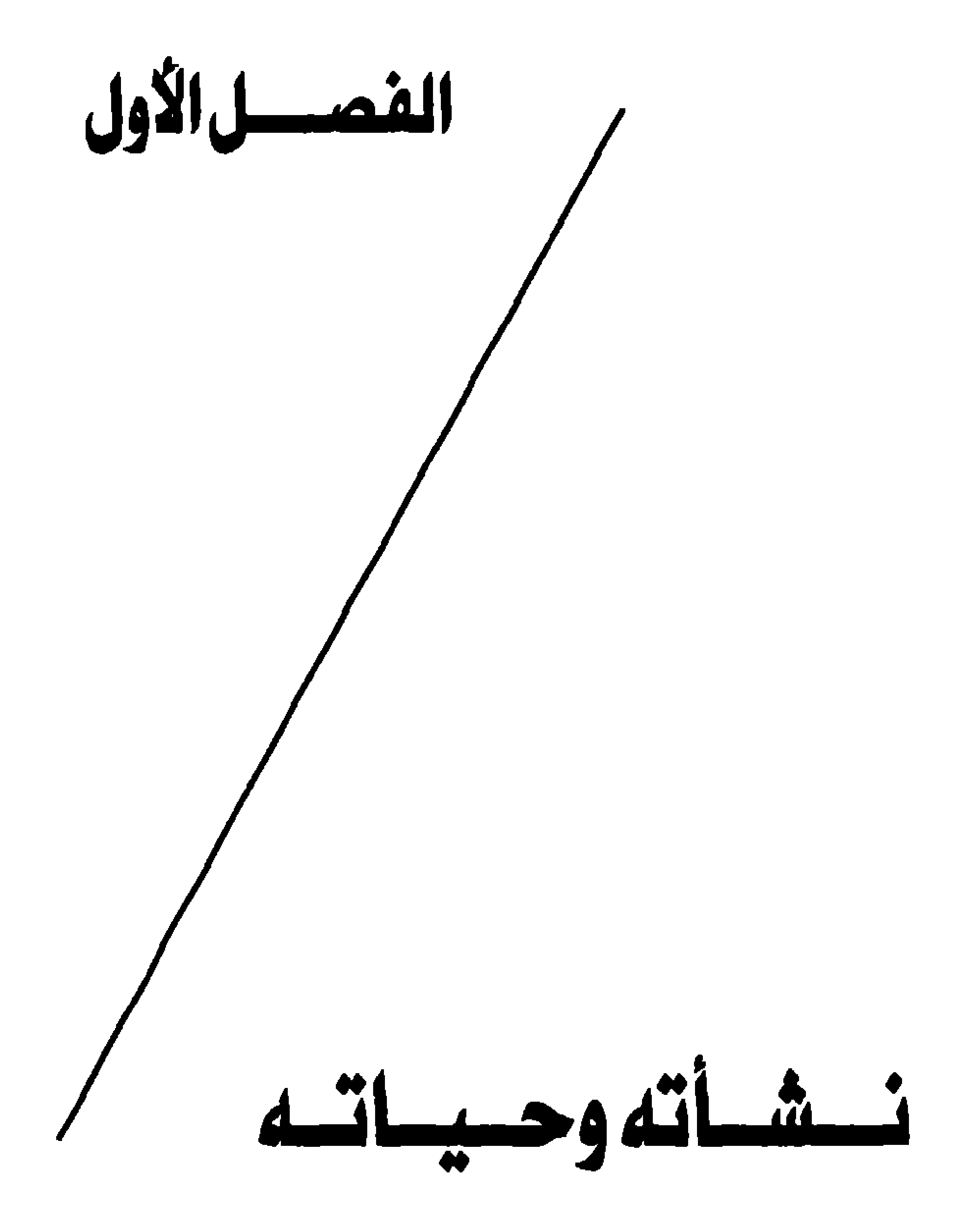
ولا شك أن دور النشر المختلفة سترحب بالتعاون مع المؤسسة على تحقيق أغراضها، وستبذل كل دار فى هذا الصدد ما لها من خبرة وتجربة.

وستستطيع المؤسسة بما لها من إمكانيات أن تعمل على إنشاء مكتبة القرية، ومكتبة القطار. ومكتبة الحديقة، والمكتبة المتنقلة. من أجل تنشئة الجيل الصاعد، من أجل الأطفال.

وإنى ليسعدنى أن يعنى الأستاذ «عبد الرحمن بدوى» بدراسة رائد أدب الأطفال الأول فى الأدب العربى، والدى المرحوم الأستاذ «كامل كيلانى».

وقد عرف الاستاذ «بدوى» والدى فى أخريات أيامه وكان على مقربة منه ومن جهوده التى تواصلت إلى آخر يوم من أيامه.

الفصل الأول



نشأته وحياته

كامل كيلانى -

ولد «كامل كيلانى» فى العشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٩٧.

والده الشيخ «كيلانى إبراهيم كيلانى» الذى يتصل نسبه بالشيخ «عبد القادر الكيلانى» (الجيلانى).

وكانت السيدة والدته تقول الزجل..

ولقد عرف الأديب نفسه، وحدث عن نشأته فقال:

«اسمى [١] (كامل كيلانى إبراهيم كيلانى)، وأبى كان من أشهر ثلاثة مهندسين فى عصره، هم عز (بك)، وسيد متولى (بك)، والشيخ كيلانى (بك).

وكنا نسكن فى القلعة فى حضن الجبل، وكانت لى مربية يونانية مثقفة جدا، كانت تحكى لى أقاصيص عجيبة، ملأت على كل خيالى.

---

(١) من مقال نشر فى مجلة الاذاعة عام ١٩٥٥ وبعض مقالات أخرى.

أستاذى هو الشيخ (أحمد أبو بكر)، وهو شاعر بربابة، يسترزق من حكايات (أبو زيد الهلالى).

وقد حفظت قصائد الشاعر الصوفى (عبد الغنى النابلسى)، والشيخ (محمود الملاح) و (الأسطى) و (محمد الشيخ) و (العربجى).

وإبان نشأتى ذهبت إلى (الكتاب) مع ابن أختى. وبقيت فيه أربع ساعات فقط. وكانت سنى أيامها حوالى ست سنوات.

كنا جالسين، منا من يقرأ، أو يحفظ، أو يسمع لزملائه.

ونحن فى انتظار قدوم الشيخ.

وكنت أنا جالسا وحدى أتفرج بالعيال.

وكان فى (الكتاب) عريف، كان يريد تعليق (يافطة) جديدة أهداها إليه أحد التلاميذ، وأمسك العريف بمسمار يدقه فى الحائط، ومال برأسه، فوقع نظره على دواة الحبر الكبيرة التى يملكها «سيدنا الشيخ» فأمسك بها فى يده ليدق المسمار، فانكسرت الدواة، وأغرق الحبر ملابسه.

فقال العيال كلهم: (هيه)! وقلتها معهم.

ودخل الشيخ «عبد الباقى» على الضجيج، وفقد الأولاد النفس، وبدأ العريف فى مد الأولاد واحدا واحدا.

وجاء على الدور!

وأصابنى الرعب من شدة ضرب العريف للأولاد!

وتوقفت يد العريف عن الضرب، واهتز سقف (الكتاب). ومال الحائط الذى نستند إليه، وتكهربت أرجلنا الصغيرة. ونحن نحاول أن نجرى، فلا نستطيع!

واعترضت طريقنا عربة (كارو) كبيرة فاندفعت فى وجه الحصان كتلة كبيرة من الحجر. فسقط الحصان غارقا فى دمه وامتلأت الدنيا بالغبار الأحمر، وأمطرت السماء حجارة ودخانا، وأصيب أكثرنا، فسقط يطلب الأمان بعيداً عن الموت والحيطان. وسقطت مئذنة المسجد الذى يجاورنا، وانكفأ النساء والشيوخ والأطفال على وجوههم، يصلون ويدعون الله أن يحسن الختام.

وصفا الجو بعد أن توقف يوم القيامة عن الاستمرار، بعدها عرفنا السبب.

رمى أحدهم (عقب) سيجارة فى مخزن البارود (بالمغاورى)، فكسر الجبل، وانحدر بأحجاره وغباره على حينا الملاصق للجبل.

ومازالت أكثر مساجد القاهرة محطمة المآذن من أيامها.

وكانت هذه الحادثة عام ١٩٠٤، ونجوت من (علقة) العريف.

وبعدها بسنتين أو ثلاث ذهبت إلى (الكتاب) ثانية، وكانت أمى تهددنى دائما بأن أبى سيضربنى. ولكن أبى لم يضربنى قط وعشت كل طفولتى وصباى أنتظر (علقة) أبى بعد كل غلطة.

وما أن نشأ «كامل كيلانى» وترعرع، حتي أخذ يحفظ القرآن الكريم فى (المكتب)، ثم اتجه إلى المدرسة، فدخل مدرسة أم عباس الابتدائية عام ١٩٠٧م.

ثم انتقل إلى مدرسة القاهرة الثانوية، ونال شهادة (البكالوريا). وقد عكف على دراسة الأدب الإنجليزى، وحفظ الشعر، إذ كان مشغوفا بالأدب إبان نشأته وصباه.

ثم تعلم الفرنسية، وانتسب إلى الجامعة المصرية القديمة من عام ١٩١٧م ـ ١٩٣٠م. وكان متفوقا فى دراسته، و (زميلا) لطائفة من رجال الأدب، من بينهم.. المرحومان الدكتوران: زكى مبارك، و عبد الوهاب عزام. والدكاترة: عبد الحميد العبادى، وحسن إبراهيم حسن، وفريد رفاعى.

وبعد أن تخرج اشتغل مدرسا فى المدرسة التحضيرية إذ كان معلما للإنجليزية والترجمة، وكان مجيدا للفرنسية، والإنجليزية، وعارفا بمبادئ اللغة الإيطالية.

وفى سنة ١٩٢٠م نقل مدرسا فى مدرسة الاقباط الثانوية بدمنهور وفى سنة ١٩٢٢م وظف فى وزارة الأوقاف، وظل فيها حتى يناير سنة ١٩٥٤م. وكان آخر مناصبه بالوزارة، منصب سكرتير مجلس الأوقاف الأعلى.

وقد عمل (كامل كيلانى) بالصحافة والفن خلال تلك المدة فاشتغل رئيسا لنادى التمثيل الحديث سنة ١٩١٨م، ورئيسا لتحرير جريدة الرجاء عام ١٩٢٢م، ثم سكرتيرا لرابطة الأدب العربى من ١٩٢٩م ـ ١٩٣٢م.

«وكامل كيلانى» بطبيعته رجل معتزل: يحب الوحدة، ويكلف بها، ويصرفها فى البحث والدراسة، وكان دءوبا لايهدأ ولايتوقف. فقد أصبح عمله هذا، هواية وغاية.

أصبح روح حياته وأيامه.

إنه لايضيع دقيقة واحدة من عمره سدى.

قال عن نفسه: «ماضاع من عمرى شئ قط) كنت أعمل حتى فى يوم المرض: أفكر، وأتأمل، وأرسم خطط العمل. كنت

أذهب إلى جبل المقطم ومعى كتاب ـ وأنا فى ذلك أومن بالقاعدة التى تقول:

«العلم إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه، وإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئا».

وظل كيلانى يواصل عمله، حتى بلغ به الجهد يوما ما، فتوقف بصره فجأة مدة أربع سنوات، ثم رده الله إليه، وشغفه بالعمل الذى كان رائده الأول، والهدف الأسمى.

وكان من رأيه أن المعركة بين أديبين من شأنها أن تجعل الأدب يفقد اثنين من رجاله، ولذلك كان يؤثر الصمت حين يهاجمه أحد النقاد، وبهذا الصنيع يخسر الأدب رجلا واحدا.

فكان شعاره، هو: أن يعمل، ويعمل دائما.

ويتابع الأستاذ الكيلانى سلسلة الحديث عن نفسه، بالنسبة لتعلقه بالأساطير وشغفه بها، فيقول: «إن الاسطورة دعامة حياتى».

ويرجع هذا إلى أنه ولد فى أحضان جبل المقطم. ، وكان الابن الرابع عشر لأمه، ولم يظفر بالحياة غيره، فنشأ فى جو صحراوى سحرى، يعبق بالأساطير والأغانى، فألف منذ

طفولته ـ العزلة الباكرة ـ وفلسفته فى هذا أنه لايرتبط مع العالم إلا في الضرورة القصوى. وقد كان هذا مما أتاح له أن يقرأ ويستوعب ويحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من عيون الشعر العربى.

هذا بخلاف الروائع الأدبية والحكم والأمثال وحصيلة غير محدودة من الفكاهات والأقاصيص.

وكامل كيلانى كان طبعه المحايدة. فلم يتعصب لأديب بعينه. ولم يكن يفضل أدبا على أدب، ولا كاتبا على كاتب آخر، ولا قصيدة على قصيدة أخرى. إذ أن: (آية الجمال أنك تعيش مع كل عظيم، فتراه أشبه بالحسناء التى تنسيك الحسان).

عاش «كامل كيلانى» اثنين وستين عاما وأشهرا، حافلة بالعلم والمعرفة.

وكانت وفاته مساء يوم الجمعة ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٩م. وشيعت جنازته إلى المقر الأخير صبيحة يوم السبت ١٠ من أكتوبر سنة ١٩٥٩م.

أساتذته:

لو بحثنا شخصية كامل كيلانى نفسانيا نجده رجلا ملهما، يستمد إلهاماته من عالم اللاشعور. ولعل هذا هو سر قوته.

ويعتبر هذا الإلهام هو العنصر الجوهرى الذى تتكون منه شخصيته القوية الساحرة التى تكمن وراء جسمه الضئيل الضعيف.

ولنستمع إليه حينما يشرح العوامل النفسية الفعالة، ويبين العناصر التى جعلت منه أديبا فنراه يقول عن نفسه:

(كان لى خال، اسمه (سعد اسماعيل)، وكان رجلا مكفوف البصر وقد كلفه والدى - حيث لاعمل له - تربيتى، وكان خالى هذا بحرا فياضا زاخرا بالقصص، فكان يقص على مسمعى ماعنده من قصص فى أثناء الليل، مما جعلنى أحب القصص ومطالعتها، وحفظ الأشعار.

وكان لى حوذى (عريجى)، نصف أمى، ونصف فيلسوف وكان حافظا للقرآن الكريم، ولكثير من الأحاديث النبوية، كما كان حافظا لكثير من الحكايات المتعلقة بالسحر والخرافات.

وكان والدى ينصرف إلى عمله، ويترك الحوذى يقص على، أو يطالع لى، وقد سمعت منه قصة «سيف بن ذى يزن» فأثرت فى نفسى كثيرا!

ومن المصادفات العجيبة أن والدى كان صديقا لأحد الأثرياء المعروفين. وفى يوم ما، رآه والدى حزينا، فسأله عن

سبب حزنه فأخبره بأنه كان يعول امرأة يونانية أرملة، ولها بنتان، وأنه سيسافر إلى «سويسرا» ولا يدرى ماذا يصنع بهذه الأسرة المسكينة؟.

فأبدى والدى استعداده لرعاية هذه الأسرة، وتولت المرأة تربيتى وكانت بنتاها على ثقافة واسعة. وأول ماسمعته منها: هو «أساطير اليونان».

وكان هنالك شاعر شعبى من شعراء (الربابة) اسمه (عبده الشاعر) وكان ينشد على ربابته أقاصيص البطولة، فكنت أذهب للاستماع إليه كل ليلة فى ميدان القلعة فى سوق العصر.

فسماعى لقصص العرب، وأساطير اليونان، وحوادث الأبطال من شاعر الربابة، وامتلاء أذنى منذ الصغر بكل هذا ـ كان له تأثير فى اتجاهى إلى القصة. وقد أعجبتنى قصة «سيف بن ذى يزن» كثيرا، وكنت أعقد مقابلات بينها وبين (الإلياذة) و (الأوديسة) لهوميروس، وعز على أن تذهب شخصية «دمر بن سيف بن ذى يزن» هباء بلا تخليد، فصنعت قصة «دمر» وجعلت له ابنا سميته «صفوان». وجعلت هذه القصة فى ثلاثين جزءا، نشرت منها ـ فيما بعد ـ ثلاثة فقط،

وكان عنوان القصة الذى خطه صديقى الأديب الشاعر الخطاط الأستاذ «سيد إبراهيم» هو (الأمير صفوان وقصته بالتمام والكمال والحمد لله على كل حال).

والذى حدث إزاء أول تجربة لى فى عالم التأليف، حينما كنت تلميذا بالابتدائى بمدرسة أم عباس سنة ١٩٠٨م - أننى ذهبت مع صديقى (سيد إبراهيم) إلى أحد (الكتبية). فلما رآنى الناشر استخف بى واحتقرنى، وعلمنى هذا ألا أكثر من اللقاء بالناس، ولذلك كنت أنشر كثيرا بتوقيع رمزى، وهو (ك.ك).

وليس معنى هذا أن القصص كانت كل شئ فى حياتى، فقد كنت مولعا بالدراسة العلمية فى نواحيها المختلفة، فكنت أطالع بالعربية والإنجليزية والفرنسية.

وكان لوالدى مكتبة حاشدة بالكتب العلمية والرياضية، لأنه كان رياضيا بارعا.

فعكفت عليها، وأفدت منها كثيرا. ولقد كنت أحفظ وأنا تلميذ عشرين ألف بيت من الشعر.

وكنت أنتهز فرصة العطلة الصيفية لأحضر فى (الأزهر الشريف) مستمعا ومحصلا.

ومن أساتذتى فيه «الشيخ السحرتى» والشيخ «سيد المرصفى».

كما كنت حريصا على ندوات الأدب والشعر والعلم. وأذكر من بينها ندوة الشيخ (مصطفى الحلبى الشامى) الحلوانى التى كنت أحضرها مع (زميلى) الاستاذ (سيد ابراهيم). وفى هذه الندوة عرفت (المعلقات).

أما فى أثناء دراستنا بالجامعة القديمة فقد وضعنا لأنفسنا خطة لدراسة الأدب العربى، والأدب الإنجليزى، والفرنسى، ودراسة الفلسفة والتاريخ الاسلامى.

وفى الوقت نفسه التحقت بمدرسة (دانتى الليجييرى) لدراسة الأدب الإيطالى.

وكنت أهرب مع «زكى مبارك» إلى مدرسة الأزهر الفرنسية وهو الأسم الذى أطلقناه على القسم الليلى الذى أنشأته البعثة الفرنسية بحى الأزهر.

قرأ «كامل كيلانى»، (عنترة» و «سيف بن ذى يزن» و (فيروزشاه) و (حمزة البهلوان) و (الظاهر بيبرس).

وهى فى مجموعها تبلغ حوالى مائة وسبعين كتابا، ولكن هذا الرصيد الضخم لم يكف القارئ الطلعة، الذى اندفع يقرأ

الأساطير في الأدب الأوربي: (روبنس كروزو) (وجيلفر) وغيرهما من أساطير الهند واليونان.

فأنشأ بهذه القراءات - في أعماقه - منطقة خيالية عجيبة، ظل يعيش فيها حتى انفجر حاجزها، عندما بلغ غاية قوته، على هذه الصورة الرائعة.

وقد أمده التاريخ بالمادة الخام، فقد قرأ إلى هذه القصص - أمهات كتب التاريخ.

وبجانب ذلك في أثناء دراسته - قرأ كتب الأدب العربي القديمة، مثل: (الأمالي) و (الكامل) للمبرد و (العقد الفريد).

مواهبه الأدبية

ولد الكاتب الألمعي (كامل كيلاني) أديبا ويعد الحاج (مصطفى الحلبي (بائع البسبوسة) - الذي كان يقف أمام الحارة، التي كان يقطنها كامل كيلاني - أول من أوحى إليه، وكون ملكته الأدبية.

وكان هذا البائع أديبا يحفظ عن ظهر قلب قصائد العالم الصوفي (عبد الغني النابلسي) والشيخ (محمود الملاح) والشاعر الذي كان يغني على (الربابة) في القهوة المواجهة

لحارته، و (الأسطى) محمد الشيخ (العريجى). وكانت بداية (كامل كيلانى) لحياته الأدبية بأسلوبه الخاص ونظرته للحياة مما يوحى إلينا بأنه سيأخذ مكانه الطبيعي بين صفوف الأدباء والمؤرخين. بل أن اتجاهه التاريخى كان غالبا فى البداية، على اتجاهه الأدبى، تشهد بذلك مؤلفاته: (ملوك الطوائف) و (مصارع الخلفاء) و (مصارع الأعيان).

ثم أبرز اتجاهه إلى الشعر. فهو شاعر يخفى آثاره الشعرية، ويحتفظ بها لنفسه.

ثم بدأ يراجع (ابن زيدون) و (ابن الرومى).

ثم اتصل بالأدب الأندلسى، وترجم كتاب (نظرات فى التاريخ الاسلامى) لدوزى، واتجه بعد ذلك شغفه إلى (المعرى). وعاش طويلا معه، وأخرج «رسالة الغفران».

شغف الكيلانى بشخصيتين فى الأدب العربى، وكلف بهما كلفا عجيبا هما «المعرى» و «جحا».

وهو يقول فى ذلك، أنهما يجمعان فى نفسه أهواءه وآراءه، وأصداء نفسه. فهو جماع بين (المعرى): العابس المتجهم و (جحا) الباسم الساخر.

وهو أيضا قد ضاق بما أدلى به الأدب الإنجليزى من التقدير لشخصية (نصر الدين خوجة): (جمال التركى). فى حين أن (جحا العربى) (أبا الغصن دجين بن ثابت) أقدم منه تاريخا. وأغلب مانسب إلى (نصر الدين) إنما هو فى الحق من آثار (أبى الغصن).

وجحا (أبو الغصن) يمثل الشخصية المصرية المرحة الفكهة، وتقوم فلسفة فكاهته على قاعدة: (عامل الناس بما اختاروا أن يعاملوك به).

أما (أبو العلاء) فيختلف، وميزته عند (الكيلانى) أنه يعبر عن كل أفكاره، فهو يرى نفسه شبيها به.

ومجمل القول أن (كامل كيلانى) كان مغرما بالأدب منذ حياته الأولى. ويكفى فى مثل هذه الحال أن يقرأ كتابا غير الكتب المقررة عليه، ويحاول أن يفهم مقالا فى صحيفة، فإنه بعد ذلك يحس فى نفسه الرغبة فى قراءة ماهو غير مدرسى. وخطوة بعد خطوة يرى نفسه خيرا مما كان عليه، وربما رأى نفسه مجدا عن كثير من لداته..

وعندما يصل إلى مرتبة الإحساس بالتفوق يكون قادرا على أن يحرق أصابعه، وربما أحرق ثيابه، فى سبيل أن يتعلم كيف يكتب، مثل مايكتب هؤلاء الذين قرأ لهم هاتيك النفائس!

وأهم حادث أثر فى مجرى حياته إنما هو أن طائفة من أصدقائه ماتوا سنة ١٩١٤ م بالهيضة، ففقدهم فجأة، وكان بعضهم أقوى منه صحة، فأحس بأن القدر قد تخطاه وأن مابقى من عمره كأنما هو زيادة.

وسئل ذات مرة: لو بقى من عمرك يوم فماذا تفعل؟ فأجاب الكيلانى قائلا: أكمل آخر ملزمة من كتابى.

وأصيب مرة بأزمة قلبية، فلم يحزنه خلالها إلا أنه لم يقرأ كتاب «برودكستر» وهو من أبعد الكتب - التى قرأها - أثرا فى حياته، وقد توفر على قراءته بعد أن أبل من أزمته حتى لايندم عليه، لو ألمت به أزمة أخرى.

هذا الشاعر، هذا الرجل الذى عاش فى الأساطير، والقصص والرؤى، بين (ألف ليلة) وبين (سيف بن ذى يزن) الذى يحبه كثيرا: هل له قلب؟

هل أحب؟

وكيف كان أثر الحب فى أدبه وحياته؟

الحقيقة أن قصة قلب (الكيلانى) لم تكتب على الصورة التى يحتفظ بها فى أعماقه!

إنه كان لايريد أن يطلع أحدا على هذا السر فى هذه السن، ولكن قصة (سنية) فى مجموعته القصصية ـ مختار القصص، تعطى صورة قريبة (لفرتر) الذى أوشك أن ينتج فعلا، لولا خاطر شعورى كان سببا فى إنقاذه وهو: أنه لم يودع فراشه الذى أمضى حياته فى أحضانه، وهو ودود، ألوف بالطبع!

هذا الحب دفعه إلى أن يحفظ ديوان (العباس بن الأحنف) ويسترجعه. وتتراءى له ـ فى خلال شطراته ـ أحلامه وآلامه، ومشاعره.

لقد أحب العباس بن الأحنف حبا صادقا نقيا. وكذلك أحب الكيلانى.

وذكر الكيلانى أنه منذ طفولته إلى شبابه وشيخوخته لم يشغله شاغل عن الفن والأدب والاطلاع والتفكير.

ثم قال: علينا أن نذكر أن النهار طويل، والليل أطول. ومثلى لايضيع جزءا من وقته فى غير طائل.

ومتعتى هى القراءة، والقراءة الموصولة التى تؤدى بطبيعة الحال إلى الكتابة الموصولة، وروافد الثقافة متعددة، وينابيع المعرفة كثيرة. فأنا أرافق ـ منذ عهد بعيد ـ أمثال «شكسبير» و «موليير» و «المعرى» و «دانتى» و «هوجو» و «موسه» و

«كرلريدج» و «بايرون» و «شيلى» و «ديكنز» و «ماكولى» وغيرهم.

ومن هذه المرافقة أفدت، وثأرت فى ذهنى وخاطرى المواد المختلفة التى تشير إليها.

إتجاهه القصصى:

الواقع أن الأتجاه القصصى عند (كامل كيلانى) كان نتيجة طبيعية لطابع شخصيته ومعالم نفسه، ولو أنه لم يكتب القصة لعق فطرته، ولظل فى عداد «الأدباء» ولم يقفز إلى صفوف «البواد».

الحقيقة أن كل أثر من آثار «كامل كيلانى» - فى مستهل حياته الأدبية تعطينا خيطا من خيوط شخصيته القصصية. كما جاءت - بعد ذلك - قوية خلاقة - عندما أبدع هذا اللون الجديد فى الأدب العربى، وهو «قصص الأطفال».

فإن التاريخ، والشعر، والأدب - كلها نوافذ على الفن القصصى وإعداد له. وهو «النواة» التى تخلق الرواية.

وإذا عدنا إلى الوراء، لحياة «كامل كيلانى» وجدناها قد رسمت وفق أسلوب قصصى، فقد تفتحت روحه على الأسطورة العربية، فاندفع يقرأ كل أسطورة، فى كل أدب.

وإذا أردنا أن نبحث عن الحافز الذى دفعه إلى السير فى هذا الاتجاه الخاص بالطفل، وجدناه ذا فرعين:

أولهما يتصل بشعور «الكيلانى» وهو طفل حينما كان يرى قصص الأطفال الأجنبية آية من آيات الروعة والجمال، والقصص العربية فى الغاية من المسخ والتشويه، حتى لقد قال لزميله وصديقه الاستاذ «سيد إبراهيم» حينما كانا طفلين: «إن هذه الكتب العربية تبغضنا فى القراءة».

فقال له: «ألف خيرا منها، إن كنت فاعلا».

فظل هذا الشعور يلازمه منذ طفولته المبكرة، وهو يقرأ ويكثر من القراءة فيختزن كل موقف رائع، وكل قصة طريفة يعجبانه، لأنهما يعجبان الاطفال الذين هم فى سنه حتى جاء اليوم الموعود، فظهرت أول قصة من قصص الأطفال سنة ١٩٢٧، وهى قصة «السندباد البحرى».

أما الفرع الآخر، فقد يكون الحافز لاتجاهه فى هذا السبيل إنه قص على ابنه قصة فرآه - بعد أيام - يقصها على الخادم بحذافيرها محافظا على أدق الأجزاء، وزادت دهشته حينما علم أنه قصها مرات على جميع لداته، لم يحذف منها شيئا.

فأدرك - حين ذاك - أن هذه القصة تشوق جميع الأطفال، وأصبح أمام أمرين:

إما أن يقتصر وقته على تربية أولاده وتثقيفهم بهذا الضرب من القصص، وإما أن ينشره ويعممه، ويربى أولاده مع الجمهرة، وآثر الأخيرة.

وتوالت قصصه للأطفال من ذلك الحين، حتى بلغت أكثر من مائتى قصة.

ونحن إذا ما انتقلنا من تبيين الحواجز إلى استجلاء الأسس التى قامت عليها هذه القصص عنده - وجدناها ثلاثة:

١ - الجانب اللغوى.

٢ - الجانب المعنوى الخلقى.

٣ - الجانب الموضوعى.

أما الجانب اللغوى فيرى الاستاذ «الكيلانى» أن كتب المطالعة العربية كلها - على تفاوتها - لا تصل التلميذ بتراثه الأدبى، ويرى أنه ينبغى أن تكون كتب المطالعة قنطرة، أو طريقا معبدا ميسرا - مهما يطل - يصل الطفل منذ الروضة (بالمتنبى) و (أبى العلاء) و (أبى تمام)، بل بشعراء المعلقات!

وطريقته فى استخدام اللغة هى التكرار والإعادة مع الشكل الكامل لكل حروف الكلمة، فهو يكرر الكلمة الجديدة فى

القصص نحو خمس وعشرين مرة، حتى يحس الطفل أنه فهمها فهما دقيقا حيا فى الجملة نفسها، وحتى تتثبت فى نفسه، وتصبح جزءا من ثروته اللغوية، يستعملها فى حديثه وكتابته.

أما العناية بالشكل الكامل فالمقصود منها تجنيب الطفل اللفظ الخاطئ، لأن الطفل بحافظته القوية، إذا حفظ الكلمة خطأ، لزمته طول حياته، فيعسر رده إلى الصواب من ناحية، ويلتصق الخطأ بكرامته، من ناحية أخرى. فإذا رد إلى الصواب حز فى نفسه، وقد يغضب ويثور لكرامته، ويلعن اللغة وينفر منها، فالإنسان عدو مايجهل.

وأما الجانب المعنوى الخلقى: فإن حرص (الكيلانى) على تجنيب الطفل الخطأ فيه لا يقل عن حرصه على تجنيبه الخطأ اللفظى، لأن الطفل إذا رأى انتصار الشر مرة ضعف إيمانه بالحياة، وتزلزلت عقيدته بالخير.

وأما الجانب الموضوعى: فإن (الكيلانى) لم يقتصر على مجال دون آخر، ولا على أدب أمة دون غيرها، وإنما استقى من كل لون، واغترف من كل أدب، مالا يجوز الجهل به، وهو يسمى هذه القصص (الفيتامينات الفكرية)، فلا بد أن تغذى بها عقول الناشئة من ضروب شتى وبمقادير متفاوتة.

ونحن إذا ماعرضنا قصصه وجدنا فيها القصص الأسطورية، والقصص التاريخية، والقصص الجغرافية، والقصص العالمية.

ومن ذلك يتضح لنا أن الأستاذ (كامل كيلانى) لم يقصر همه على تنمية الخيال وحده، ولا تنمية الثروة اللغوية وحدها، وإنما قصد إلى هذين، وإلى مقاصد أخرى، قد يكون منها إمداد الطفل بالمعلومات العلمية، والتاريخية، والجغرافية، وتعويده التفكير العلمى المنظم، ووصله بركب الثقافة والحضارة من حوله فى إطار قصصى يشوق، وأسلوب سهل يستهوى ويروق.

وتعهد الكيلانى بالطفولة وتربية الناشئة، لأن الطفولة ضعف والعلم رفق. وأخلق أن يمر بها رفيقا، كمر النسيم بالأزاهير، وأخلق بالعلم الحصيف أن يترفق بهم، ويتملق تلك العواطف.

على أن للطفولة أفئدة حاكية وضاءة، كصحيفة السماء، فحذار أن تخطو فى تلك الأفئدة ـ بل الصحائف ـ الا بأقلام لبقة، بتصوير الملامح، فإن للطفولة قلوبا حساسة حافظة كأنها «ورق المصور الحساس».

وفى مذهب التربية الحديثة، أن يؤخذ الوليد فى تعليمه الجدى، بالشهى الملهى من فكه الحديث ومشوقه، فى مزاج

من النقاش، والتصوير الكلى، ليلتقى جدا العلم المجتهد ببشاشة الجمال والفن الساحر، ترتاض به نفسه الكليلة.

منهاجه الأدبى

طريقة الكتابة عند الكيلانى:

نراه يحدثنا عن ذلك فيقول: ليس لى وقت خاص أكتب فيه، ولا مكان خاص، ولا طريقة خاصة.

على أن خير الأوقات التى تحلو لى فيها الكتابة هى الأوقات التى أشعر فيها بأن صحتى أحسن، وأن الضعف الجسمانى - الذى يكاد يلازمنى - قد حل مكانه شئ من النشاط والصحة.

وكثيرا مايحلو لى أن أكتب ليلا أو سحرا، على شريطة أن أضطر إلى الكتابة اضطرارا.

وربما حسبت - لكثرة ما أكتب - أننى مشغوف بالكتابة، والحقيقة أننى من أزهد الناس فى الكتابة، وإن كان شغفى بالقراءة قد أربى على كل حد.

أما الكتابة، فإنى أهرب منها هروبا، ولايضطرنى إليها الا تقييدى بمواعيدها الاجبارية، وتقديرى التبعة المترتبة على التوانى فيها.

ولست أتعب فى كتابة الموضوع، وإن كنت أتعب فى التفكير فيه قبل كتابته.

وربما لازمتنى الفكرة أشهرا إن لم أقل سنين وأنا لا أجد الفرصة لقيدها كتابة، ولست أكتب الا فى آخر الوقت.

وربما شغلتنى أعمالى طوال يومى، فأعود إلى البيت فى التاسعة أو العاشرة أحيانا، ثم أبدأ فى الكتابة حتى أتم الموضوع الذى بدأت فيه، ولو مضى فى ذلك الليل كله.

وليس يعوقنى عن الكتابة أن يتكلم بجوارى ألف شخص، ولكن الصياح أو الصراخ هو الذى يزعجنى، ويقطع على تفكيرى، ويهيج أعصابى إلى أقصى حد.

وليس يعوقنى أن أكون جالسا بين أولادى وزوجى فى أثناء الكتابة بل قد يحبب إلى ذلك وينشطنى تنشيطا.

وربما أنصت إلى حوارهم اللذيذ فى بعض الفترات التى أستريح فيها من الكتابة، وقد أقص عليهم قصة قصيرة، أو أشاركهم فى حوارهم، ثم أعود إلى الكتابة.

وقد عرفوا أننى لا أغضب إلا إذا طلبوا إلى أن أتكلم، أو أبدى رأيى فيما يريدون فى أثناء الكتابة.

وهذه عادتى فى أثناء القراءة أيضا. وقد ألفوا منى ذلك، فأصبحوا يتكلمون فيما شاءوا من الموضوعات، دون أن يوجهوا إلى سؤالا واحدا».

وكان موقف الأستاذ «الكيلانى» ظاهرا، حينما لعب الاستعمار دوره، إذ أراد انتشار العامية للقضاء على اللغة الفصحى، وفرض لغته على اللغة القومية ليتخذها الناس لغة لهم، ودستورا فى المخاطبات والمراسلات، وشئون البلاد. ولكن فشل الاستعمار وأذنابه، إذ ازدهرت اللغة العربية، وذلك بتقوية الشعور القومى، بفضل المجاهدين المخلصين.

ونرى الكيلانى يحدثنا عن موقفه الحاسم فى ذلك منذ ربع قرن إبان المعركة اللغوية، فيقول:

«أنا أحارب اللغة العامية التى يدعون إليها».

أحاربها بكل ما أستطيع. ولكن أسلوبى فى محاربتها، كما قلت فى غير مرة، هو (حرب البناء الذى يصنع التاريخ).

وأنا أقول لهؤلاء الذين يريدون الكتابة بالعامية. أى عامية نكتب بها. عامية مصر، أو العراق، أو سورية، أو الحجاز، أو عامية القاهرة أو الإسكندرية أو أسيوط أو دمياط؟.

وأنا أقدم لكم نصا كتب باللغة العامية أيام (محمد على).
وهذا النص عبارة عن خطاب يطلب فيه مرسله استدعاء (البوليس) لفض معركة بين شابين، أحدهما اسمه (شادى، والآخر اسمه (مهران). وهذا هو النص:

(حيص ليص، ولد «شادى اتعارك مع ولد «مهران» ليلة البارحة جبل طلوع الشمس بدنشة، وعمل موزجلاية كبيرة، وشده وزعطه، وشاله ومعطه، وتناول دنشة حرابة كبيرة، وضربه فى فردة عينه البحرية!)

ولقد وقفت بشدة أمام (محمود تيمور) عندما كان يكتب الحوار فى بعض قصصه بالعامية، قلت له: اذا أردت أن يكون أدبك محليا فاكتب بالعامية، وإذا أردت لأدبك الخلود فاكتب بالعربية!

وأصبح (تيمور) الآن من ألد أعداء العامية.

ويظهر مذهب كيلانى واضحا حينما رد على الذين يقولون إن كتابة الحوار القصصى باللغة العربية العامية لايضعف الأدب، ولا يصبغه بصبغة محلية ضيقة، فقال:

«إن الكتابة وضعت لكى يفهمها الناس، وكلما استطاع الكاتب أن يفهم عددا أكثر كان نجاحه أكبر.

والأمم العربية مختلفة اللهجات، ولكن تجمعها، وتوحد بينها اللغة الفصحى الواحدة، وهى اللغة العربية. والصفوة المثقفة لاتفهم بغير الفصحى.

ففى أى سبيل نضيع هذه الامبراطورية الفكرية. وبأى ثمن؟

لاشك أن حوار القصص يجب أن يكون باللغة العربية الفصحى، والذين يعمدون إلى جعل الحوار باللغة العامية الدارجة والمألوفة لكل شعب لايفعلون ذلك إلا عن ضعف، وعدم إتقان اللغة. فلو أنهم كانوا متمكنين من لغتهم ماجاء حوارهم عاميا مبتذلا».

ولقد عنى الكيلانى بتنشئة الاطفال، لأنه يعتقد أن طالب الاصلاح يجب أن يعبد الطريق. وأول مايعنى به المهندس إنما هو متانة الأساس، فالطفل هو أساس الأمة وموضع أمل الجميع. فالعناية به عناية بالأمة جميعها.

ولقد أحس (المربى الكبير) أن الطفل الذى يعيش فى قصصه، ويرى الخير دائما ينتصر، ثم يكبر ويدخل معترك الحياة ـ يجدها كلها صراعا وشرا، فيصاب بصدمة يقف معها مشلولا أمام الخديعة التى ظل يعيش فيها كل طفولته وصباه.

ولهذا كان (منشئ الجيل) يضع الشر دائما بجوار الخير، ويصور له الصراع العنيف، الذى يدور بينهما حتى ليكاد يتوقع أن ينتصر الشر فى لحظة خاطفة، وتنتهى القصة. لكن الخير ينتصر فى النهاية بكل وسائل الذكاء والمكر والحيلة.

وكانت فلسفته فى ذلك - ليغرس فى نفوس (الأطفال - حقيقة الحياة الواقعة. وهى أن النصر للخيرين الأذكياء، والهزيمة للأشرار الأغبياء!

●

الفصل الثانى

رحلاته إلى العالم العربى

لقد عبر «كامل كيلانى» عن رحلته فى العالم العربى بأسلوب فياض، يطرب منه القارئ، لما فيه من سلامة فى اللفظ ورشاقة فى المعنى فهو يصف البلاد العربية عندما زارها، وصفا بديعا للأيام التى قضاها فى: فلسطين، ولبنان، وسورية. ففى كتابه (مذكرات الأقطار الشقيقة) الذى ألفه سنة ١٩٣٤م بعد عودته من الأقطار الشقيقة يقول:

(هى أيام بهيجة قضيتها فى فلسطين ولبنان وسورية، تتضاءل بهجة الأعياد والمواسم إذا قيست إلى بهجتها. وقد مرت - على طولها - قصيرة كما تمر الاحلام الشهية، تاركة - وراءها - أعذب الذكريات، وأبدع الامانى.

هى أيام بهيجة، نعمت فيها بأحاديث أبناء العروبة وشبابها وشيوخها، ورأيت فى أحلامهم وآمالهم وآلامهم صورا صادقة من أحلامى وآلامى، فذكرت قول ابن الرومى:

مواقيت أهواء توافت على هوى

فلو أرسلت كالنبل لم تعد موقعا

اذا ما دعا منا خليل خليله

بأفديك، لباه مجيبا، فأسمعا

وليست هذه الذكريات العطرة الا صدى لتلك الايام الساحرة، التى قضيتها فى تلك البلاد الفاتنة، وسعدت فيها بلقاء زعماء الفكر، وقادة الرأى، فى هذه الاقطار المحبوبة.

فإلى أبناء هذه البلاد: فتيتها وكهولها وشيوخها، وإلى كل نصير للعروبة والعرب، وإلى كل من يعمل على تقوية الاواصر وتوثيق الصلات بين هذه الاقطار المتآخية الشقيقة - أقدم هذه الذكريات. وليس لى فى تقديمها من فضل، وإنما مثلنا، كما يقول القائل:

كالبحر يمطره السحاب، وماله

فضل عليه، لأنه من مائه

ثم يواصل حديثه ليصف لنا شعوره فى تلك الزيارة، فيقول:

إن المصرى ليحار أمام مايلقاه من الحفاوة والتكريم فى تلك البلاد المحبوبة. ثم تشتد حيرته ويقوى شعوره بالعجز عن مقابلة أهليها احسانا باحسان. فتثور نفسه أمام هذا العجز

الفاضح. ويرى أنه مهما بذل من ثناء وشكر، فهو مقصر شديد التقصير.

ثم نراه يتابع حديثه أيضا فيقول:

وليست هذه الحفاوة ـ فيما رأيت ـ مقصورة على مصرى دون مصرى، لعلمه أو فضله أو أدبه، بل هى حفاوة عامة، يختصون بها كل مصرى يلقونه فى بلادهم الساحرة الأخاذة، فهم يتخذون من كل أديب مصرى رمزا للأدب المصرى، ويكرمون فى شخصه الضعيف مصر المحبوبة وأدبها وتفكيرها.

ولقد كان للنعمان بن المنذر يوم نعيم فى كل عام. وكان يسعد به أول من يصادفه فى ذلك اليوم من الناس.

وقد آلى إخواننا اللبنانيون والسوريون والفلسطينيون والعراقيون على أنفسهم ليجعلن أيامهم كلها ـ كيوم النعمان ـ أيام إسعاد. وأقسموا ليغرقن بإحسانهم وأفضالهم كل مصرى يعتز بشرقيته، ويفخر بعروبته.

ثم يقول:

لقد زرت الأقطار الشقيقة مرتين، فى عامين متعاقبين، فما ازددت بها إلافتنة وهياما، ثم يتابع الحديث بقوله:

وما أكذب القارئ حين أقول له: إننى مازلت مأخوذا بسحر مارأيت وسمعت. ومازلت حالما، وما أحسبنى أشفى من سحر هذه البلاد، أو أتنبه من هذا الحلم اللذيذ الرائع، إلا إذا غمرنى سحرها، عودا على بدء.

القومية العربية، وعواملها

لقد دعا كامل كيلانى إلى وحدة الشمل بين العربى فى القاهرة وأخيه فى لبنان وسورية والعراق وفلسطين. بل فى سائر البلاد، من الخليج إلى المحيط، إذ أنهم قد اتفقوا فى الجنس والتاريخ واللغة، تلك العناصر التى تعتبر الدعائم الكبرى للوحدة العربية الشاملة.

وكانت نظرة كامل كيلانى إلى اللغة نظرة اكبار واجلال، لانها لغة البلاد العربية، وبها نزل القرآن الكريم دستور السماء، وأنه متى تمسك العرب بلغتهم عز جانبهم، وجمع شملهم، وشد من أزرهم، وأصبحت لهم كلمة عالية، وأصوات مدوية يعربون فيها عن آمالهم وأحلامهم، حتى يعود لهم مجدهم الغابر التليد.

وهذه النظرة الدقيقة نلمسها منه حينما كتب عن وحدة اللغة، عندما زار البلاد العربية، ولمس فى أهلها: الشجاعة،

والنبالة، ومكارم الاخلاق، وحسن العشرة. مبينا غبطته وفرحته وسروره بهذا اللقاء فتكلم عن اللغة باعتبارها العامل الأساسى لبناء الوحدة.

القومية العربية ووحدة اللغة

قال كامل كيلانى:

لقد كان يملأ نفسى شعور عجيب، حيثما حللت، وكيفما أدرت لحاظى فى تلك البلاد، فقد كان يتمثل لى أننى سائر فى وطنى، وإننى أرى فيمن يكتنفنى من الاصدقاء، مواطنين أعزاء وأخوة أشقاء.

وكانت نفسى تطرب لكل عمران ألقاه فى طريقى، وأشعر إنه اصلاح فى وطنى الذى نشأت فوق أرضه وتحت سمائه، وأخلصت له المحبة والولاء.

ترى من أين نشأ هذا الشعور؟ وما مصدر هذا الحرص الشديد على كل خير يصيب هذه الاقطار الحبيبة إلى نفس كل شرقى مخلص لشرقيته، معتز بعروبته؟ ولماذا يهتم المصريون ببناء هذه البلاد ويشركونهم فى أفراحهم وأتراحهم على السواء؟

ولماذا يغمرنا أهل تلك الاقطار بحبهم وإخلاصهم، ويغرقوننا بأفعالهم وإحسانهم؟ وما مبعث هذا الشعور؟

فضل ذلك كله عائد إلى اللغة العربية التى ربطت أواصر هذه البلاد، ووحدت ثقافتها وآدابها وأمانيها وأحلامها، فأصبحنا بفضلها نعجب جميعا بالمتنبى، وابن زيدون، والمعرى، وابن الرومى، وأبى نواس، والجاحظ، وعبد الحميد، وابن المقفع، ومن اليهم من أفذاذ الشعراء، وفحول الكتاب.

وأصبحنا نرى فى كل فخر ينسب إلى هؤلاء الأفذاذ وأضرابهم، فخرا تالدا لنا، ومجدا باقيا، نتباهى له، مرفوعى الرءوس، موفورى الكرامة.

وقد أصبح مرتاد هذه الأقطار بفضل هذه اللغة الجليلة لايكاد يسير فى أى مكان منها خطوة الا تمثل له فيها موقف تاريخى مجيد، أو حوار أدبى رائع، أو طرفة بيان ساحرة. أو قصة خيالية تعجبه فيطرب ملء نفسه.

ومازلت إلى اليوم - على بعد الشقة - يتمثل لى المنظر الأخاذ كلما قرأت هذين البيتين:

أنا والله هالك ... آيس من سلامتى
أو أرى القامة التى ... قد أقامت قيامتى!

نهضة الشرق

ثم تكلم كامل كيلانى عن نهضة الشرق مبشرا بالوحدة، فقال: إن نهضة الشرق واعداد وسائلها وتهيئة أسبابها وتذليل

العقبات التى تعترضها ـ لهى أكبر مايشغل أساطين هذه البلاد الذين آلوا على أنفسهم ليعزن الشرق بعد إذلال، وليرفعن أعلام النهضة فى بلادهم عالية خفاقة، وليبذلن جهود الجبابرة فى سبيل إنهاض الشرق من كبوته، وإقالته من عثاره وكلهم يقول:

أريد من زمنى ذا أن يبلغنى   ماليس يبلغه من نفسه الزمن

وليس بين الإنسان وادراك طلبته، إلا أن يريد، ومتى وجدت الإرادة بعد إرادة الله، فقد وجدت الوسيلة.

لقد عانى الشرق من ضروب الإعنات والخمول وأفانين الغفلة ماعانى، حتى كاد داؤه يصبح عضالا على المصلحين. ولكن لكل بداية نهاية، وبعد الليل النهار، وزمهرير الشتاء يعقبه صفاء الربيع، وحرارة القيظ فى الصيف يعقبها اعتدال الخريف، وما أصدق المثل القائل:

«كل مالم يقتلك، فهو ينفعك».

لقد استيقظت الأمم الشرقية من رقاد طويل، وأصبحت الوحدة الفكرية مطلب الجميع وأنشودة الجميع وغاية الجميع، فما أكاد أشهد حفلة مدرسية أو اجتماعا خاصا أو عاما الا سمعت فيه من الاناشيد والخطب فى تمجيد العروبة وتوثيق

أواصرها ما يملأ النفس ثقة ويقينا بدنو فجر هذه الليلة الطويلة المظلمة.

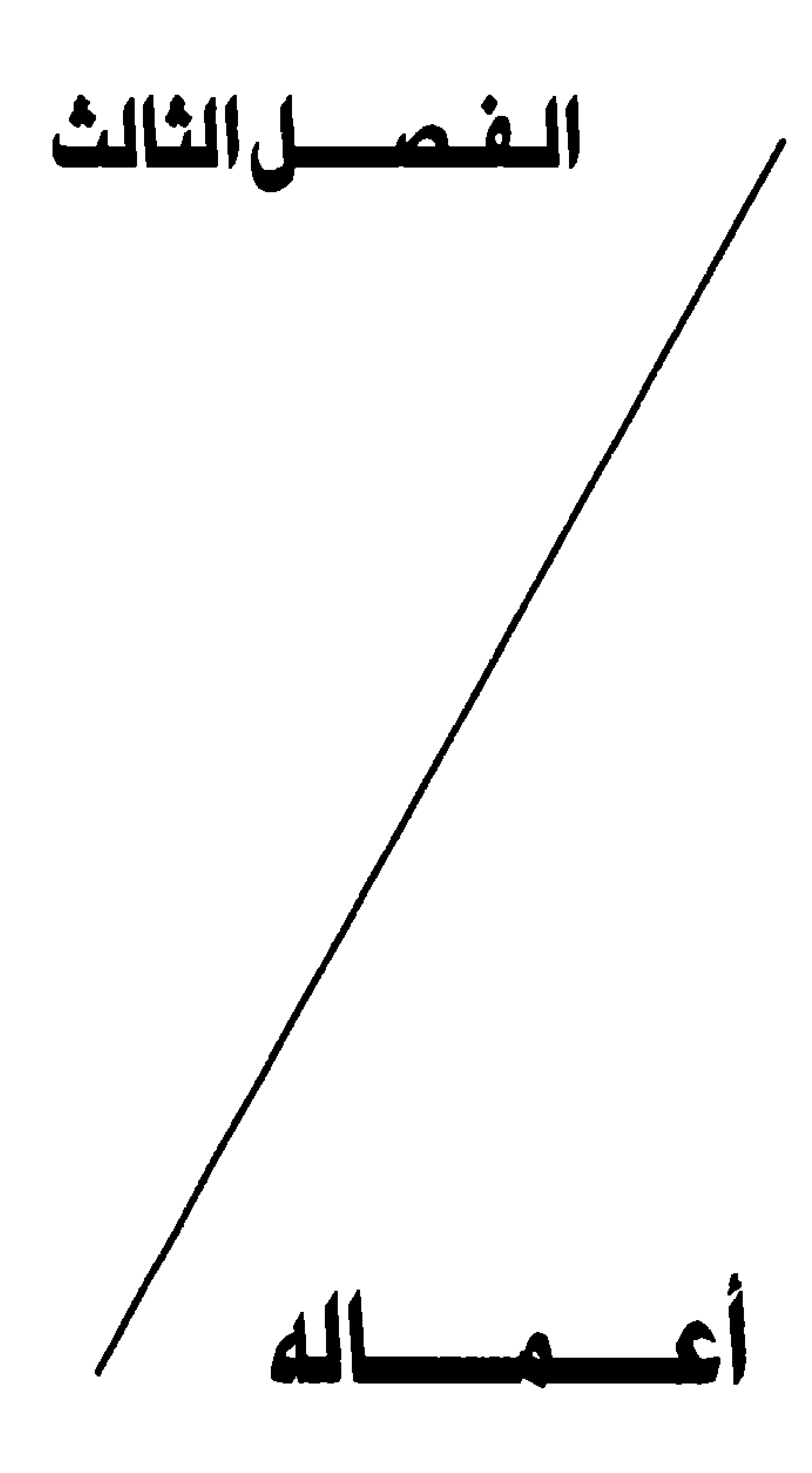
ونرجو أن يمتد بنا الاجل، فنشهد مغتبطين فجر هذه الليلة.

متى يطلع هذا الفجر؟

ذلك مانرقبه من زعماء هذه البلاد الشقيقة، وشبابها، وصحفييها وحاملى ألوية النهضة فيها.

●

الفصل الثالث



أعماله

بأعمال «الكيلانى» المتواصلة، سجل له التاريخ فى صفحاته البيض النصع أجل الآثار، إذ كتب مصارع الخلفاء، ومصارع الأعيان، وحقق رسالة الغفران، وشرح ديوان ابن الرومى، وترجم الأدب الأندلسى، ونظرات فى تاريخ الاسلام، وروائع من قصص الغرب، وفن الكتابة، وموازين النقد الأدبى، وتناول الكتابة فى الرحلات بعنوان: (ذكريات الأقطار الشقيقة).

ثم التفت إلى فن (أدب الاطفال) فكان رائد قصة الطفل من أول تعليمه الابتدائى إلى الدراسة الجامعية فى حلقات متوالية تناسب سن الناشئ وتدرجها.

تحقيق المفاهيم الأدبية

١ - كامل كيلانى مع أبى العلاء المعرى:

(كامل كيلانى) كتاب ضخم يضم بين دفتيه كنوزا حية من الآداب العربية والغربية. وخصيصته فى هذا أنه كالنحل

الذى يحوم حول الزهرات ويمتصها ويتمثلها، ثم يخرجها للناس أدبا، فيه شفاء للناس.

فهو لايزال يقرب إلى الناس كنوز هذه الآداب المطمورة، وراء غموض العباقرة، فى ديباجة صافية، يفهمها القارئ العادى، ويرضاها الاديب.

وصداقة (الكيلانى) لأدباء العربية ـ فى عصورها المختلفة ـ صداقة وثيقة، ولكن هذه الصداقة ترتفع إلى درجة القرابة بينه، وبين شعراء العربية: أبى تمام، وابن الرومى، وأبى العلاء.

ولعل «كامل» هو الكاتب الوحيد الذى تستطيع أن تنسق مؤلفاته فى ثبت مع خطوات الإنسان فى مراحل حياته: فتلك (مكتبة الطفل) وتلك (مكتبة الشباب)، وتلك (مكتبة الاديب).

ولقد عنى كامل كيلانى بأبى العلاء المعرى عناية كبيرة يدل على ذلك مايلى:

٢ ـ أبو العلاء المعرى فى لزومياته

أبو العلاء رجل سوداوى المزاج ممعن فى السخط على الحياة، بالغ فى سخطه وبرمه مدى لايشركه فيه إلا القليل النادر من الفلاسفة المتشائمين.

وهو مطلع واسع الاطلاع على آداب أكثر الامم التى نقلبت آدابها إلى العربية، وعالم واع بأخبارها، صادق حين يقول:

مامر فى هذه الدنيا بنو زمن الا وعندى من أخبارهم طرف

وهو مع هذا العلم الغزير بتواريخ الأمم المختلفة، والرواية الواسعة لآدابهم المتباينة، ممحص فطن خبير بتمييز الاخبار، دقيق فى نقد زائف القول من صحيحه، وأبو العلاء، مفكر، عميق التفكير، ملهم المعنى، قوى الحجة عالم من أساطين اللغة، المشهود لهم بالسبق والتفوق.

وهو إلى ذلك، شاعر (فنان)، عريق فى الفن، عارف بروائعه، خبير بأسرار الجمال، ومواطن الجلال، وهو حر الفكر، واسع الخيال، فياض المعانى، مشرق الديباجة، لايعوقه عن بلوغ غايته شأو، ولا يقف فى سبيله حاجز.

هذه الميزات الباهرة من سمات شعر أبى العلاء - الحافل بروائع الفن والفلسفة - حين تقرأ كتاب (اللزوميات) - تطالعك كل صفحة منه بما يزيدك اقناعا بتلك الميزات العالية، التى أفردت أبا العلاء، فأحلته أسمى مكان بين شعراء العربية جميعا كما يرى بعض الادباء، وتعاونت على تكوين شخصيته الجذابة، فجعلته من بين جبابرة الفكر وأساطين الفن المبرزين.

وأى روض من رياض الفكر، أحفل بروائع الفلسفة والفن من ذلك الروض الفكرى البهيج، الذى تتحلى به كل صفحة من صفحات (اللزوميات) أذ تقرؤها فتطالع فيها سفرا من أسفار الحياة حافلا بأسمى وأروع مايبدعه العقل الإنسانى، وتتمثل فيه الخوالج النفسية واضحة جلية، لا لبس فيها ولا إبهام؟

إقرأ كل صفحة من صفحات الكتاب بروية وأناة.. وأنا الزعيم لك بأنك لن تجد إلا ماحدثتك عنه من الروعة والجلال، فإذا حال دون امتاعك به حكمة غريبة عنك، أو لفظة تنبو عنها أذناك ـ فحذار أن تعجل بالحكم على الرجل، قبل أن تتثبت من وجهها الصحيح، فليس هذا ذنبه وليس من العدل أن يؤخذ بتبعته، وإنما إثم ذلك عائد إلى تسرعنا فى الحكم، أو قلة محصولنا اللغوى، أو عدم المامنا بقسط كاف من تاريخ الامم العربية الأخرى، التى أثرت فى تاريخها وفى أدبها معا، أو قصورنا فى درس جغرافية تلك البلاد.

وليس على أبى العلاء إثم إذا عثرت كذلك فى شعره على كلمة غريبة وتبادرت إلى ذهنك كلمة حسبتها أليق منها وأبلغ فى أداء المعنى، فمضيت فى حكمك لاتلوى على أحد أو على شئ.

نعم، فان الرجل دقيق، يعنى مايقول، وليس مغرورا يولع بالبهرج ولا منافقا يكذبك نفسه، ولا قليل البضاعة يزجيها عليك. ولكنه رجل واسع الفكر، بعيد المرمى. وليس أجدر بالرواية والأناة من قارئ الأدب العلائى.

فاذا وقع بصرك على مثل قوله:

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته	فقير معرى أو أمير مدوج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة	ويحرم قوتا واحد وهو أحوج

فتبادر إلى ذهنك أن كلمة (مدوج) ثقيلة على السمع، وأن التزمت والإغراب هما السر فى التجائه إليها، وإنة كان جديرا به أن يقول بدلها (متوج)، وما أليق هذه الصفة بالامير! وما أخفها على السمع، وألطف مدخلها فى القلب! فتريث قليلا، وانظر إلى المعنى - بعد أن فتنك بهرج اللفظ - وخبرنى بعد ذلك: «أيقابل عرى الفقير تاج الأمير؟ وقل لى بربك: كم تفقد تلك الصورة الشعرية من الجمال إذا وضع هذا اللفظ بدل ذلك؟

إذن، فقد أراد أبو العلاء اللفظة الأولى، وقصد إليها قصدا، ولو كان يتكلم نثرا، لأتى بها، ولم يرض بديلا. وماأروع تلك الصورة الشعرية الجميلة التى تتمثلها فى هذا البيت الدقيق، اذ ترى الشتاء زاحفا بقره ومطره وزمهريره، وترى فقيرا بائسا يستقبل هذا الفصل القاسى عاريا، لايجد مايدفئه أو يقيه غائلة

البرد، ثم ترى ـ إلى جانبه ـ أميرا متدثرا بلحاف فوقه لحاف، لايكاد يشعر بألم البرد القارص أو يحس زمهريره.

وترى فى البيت الآخر مجدودا، تكدست أمامه أقوات أمة بأسرها على حين تجد إلى جانبه مسكينا قد حرم قوت يومه.

حسبنا هذا المثل من أمثلة عدة، يفيدنا استقصاؤها، ولا يتسع الوقت لذكرها ولكن حذار أن يدخل فى روعك ـ أو يدور بخلدك ـ لحظة واحدة ـ أننا ننزه أبا العلاء، وأننا نطلق القول اطلاقا، فنعصمه من كل خطأ، أو نزعم له شيئا من ذلك، إنما هو إنسان قبل كل اعتبار وبعد كل اعتبار.

ولكن كل مانقوله، هو أننا ألفنا منه الدقة والإحكام. وهو لم يعودنا الثرثرة والهذيان. ولو وضعنا فى البوتقة كل ماقدمه لنا من المعادن لألفينا جله ذهبا خالصا، غير مختلط بنحاس، فإذا شذ ذلك شئ فهو الفكر الإنسانى الذى لايسلم صاحبه من عثار أو كبوة فى أثناء تحليقه فى سمواته العلا والشعر كالشجر:

ركب فيه اللحاء والخشب الـ ـــيابس والشوك بينه التمر

ونوجز فنقول:

إننا إذا عددنا نخبة المفكرين والفلاسفة الذين تركوا أوضح أثر فى تاريخ الفكر الإنسانى، والذين هم أبعد الناس عن

الاسفاف واللغو- فإن أبا العلاء بلا شك يكون فى أعلى ذروة يجلس فيها أساطينهم وجبابرتهم.

وهذا كلام نؤكد للقارئ أننا نعنيه تماما، وأننا نقوله له جادين، وأننا أبعد الناس عن المبالغة حين نقرره.

فليس يمترى أحد درس أبا العلاء حق دراسته فى أنه قد خط للشعر العربى طريقا جديدا، فيه جدية فلسفية، وأنه قد أودع لزومياته أسمى المبادئ الاجتماعية، وأرقى أساليب النقد الصحيح، والسخرية الخفية اللاذعة والدعابة القاسية التى تحوى الجد المر، بين ثناياها، والتى تكشف عن النفس الإنسانية وعن الطبيعة الخالدة.

النقد الأدبى

شخصية (كامل كيلانى) تبدو فى طبيعته المتواضعة العالية التى ترغب عن الصيال، أو الرد على مايوجه إلى صاحبها من نقد، وكان قد بدأ حياته بمقالات فى النقد عام ١٩٢٠ بامضاء (ك.ك)، أحس بعدها أنه تزعم الميدان وأحرز الشهرة.

فنفض يده من النقد وازدراه، اذ رآه عملا يوصل إلى الشهرة دون عناء، وهو الحريص على أن يصل بالجهد والعرق والسعى الموصول.

ويرى (كامل كيلانى) أن أعظم ماكان له من أثر هو نقده لشوقى حين وجهه إلى كتابة المسرحية الشعرية. فلما كتبها (شوقى) أحس الكيلانى بأن الخصومة بينهما قد انتهت، ومن ثم صارا صديقين ارتبطت بينهما أواصر الود الصادق، والحب الأكيد.

والكيلانى يعرض علينا نماذج من النقد الأدبى الصميم فيما يلى:

١ - ابن الرومى كيف أغفله صاحب الأغانى

لو نطق الدهر هجا أهله   كأنه الرومى أو دعبل

(أبو العلاء)

ألف أبو الفرج الأصفهانى كتاب الأغانى لغرض خاص، هو إثبات مائة الصوت، التى اختيرت للرشيد، ثم جره ذلك إلى الاستطراد، فذكر من الطرف والبدائع شيئا كثيرا، حتى أصبح كتابه كنزا من كنوز الادب العربى لامثيل له.

فإذا أغفل أبو الفرج الأصفهانى التنويه بشاعر فحل كابن الرومى فهل نجد من يحتج له؟ وأى دهشة تتملكنا، بل أى حيرة تملأ نفوسنا حين نجيل البصر فى هذه المجلدات الضخمة التى تؤلف دائرة معارف أدبية نادرة، فنرى مؤلفها الذى أغفل ابن الرومى قد استطرد أكثر من ألف مرة إلى ذكر من يستحق الذكر ومن لايستحقه، والتنويه بشعراء - إن

أجللناهم مرة ـ نزهنا ابن الرومى أن يوضع معهم فى ميزان أو يقاس إليهم بمقياس ورأيناهم إلى جانبه أقزاما بجانب عملاق؟

وقد عنى أبو الفرج ـ فى غير كتابه (الاغانى) ـ بدواوين من يحبهم من الشعراء. فجمع ديوانى أبى تمام والبحترى، ورتب ديوان كل منهما على الأنواع ـ لا على الحروف ـ كما عنى بجمع ديوان أبى نواس!

وتعمد الإغفال ظاهر. فإن أبا الفرج لم يذكر ابن الرومى فى كتابه (الاغانى) الا مرتين، وكأنه لم يذكره إلا ليسئ إليه، بدلا من أن يشيد بذكره.

فقد ذكره فى موضع بمناسبة انتحاله بيتا من الشعر لابراهيم بن العباس [1]، وذكره فى مكان آخر من الكتاب بمناسبة ـ نكبة سليمان بن وهب وإبنه [2] ليظهر لنا مظهر الشامت. وكلا الموقفين لايشرف صاحبه.

ففى الموقف الأول، يوقفنا به سارقا منتحلا بيتا من الشعر.

وفى الموقف الآخر يقدمه لنا هاجيا فى غير موقف الهجاء، ليثبت ـ أبو الفرج ـ فى الصفحة نفسها ـ رثاء البحترى لسليمان

---

(١) ارجع إلى جـ ٩ ص ٢٨ من كتاب الاغانى.

(٢) ارجع إلى جـ ٢٠ ص ٧٢ من كتاب الاغانى.

ابن وهب الذى جود فيه، كما يقول أبو الفرج - ثم يتبع ثناءه على البحترى إطراءه إبراهيم بن العباس والاشادة بذكره.

فإذا لم يكن ذلك اغفالا فهو عندنا شر من الإغفال. وإذا لم يكن أبو الفرج الأريب الفطن الرواية قد تعمد الاساءة إلى ابن الرومى فكيف يكون تعمد الاساءة لغير ذلك؟

لم يكن ابن الرومى خاملا فى عصره حتى يقتصر أبو الفرج على رواية أربعة أبيات من شعره فى هذه الموسوعة الضخمة.

وقد زعم بعض الأدباء أنه كان خاملا. وهو وهم يفنده الواقع. فلم يكن ابن الرومى خاملا - لافى عصره ولابعده ولكن الناس كانوا يكرهونه لإفحاشه فى الهجاء حتى لم يكد يسلم من لسانه إنسان له خطر. وكان الهجاء سببا فى قتله.

فإذا قال قائل: «ولماذا نوه أبو الفرج بدعبل، وذكر كثيرا من أخباره وهو وابن الرومى متهوران بسلاطة اللسان والإقذاع فى الهجاء» ؟

قلنا إن عصر دعبل قد تقدم عصر ابن الرومى بقليل. وقد مات من أساء اليهم دعبل. وحقد الناس عليه. فلم يبق هنالك بأس من الإشادة بذكره والتنويه بفضله.

أما ابن الرومى فقد أساء إلى أعيان الدولة وكبار رجالها، كما أساء إلى شيوخ الأدب وزعماء الشعر، ولم تزل إساءته - إلى زمن أبى الفرج عالقة بالأذهان. ومازال بعض من أفحش ابن الرومى فى هجائهم عائشا فى زمن أبى الفرج، وربما كان من بينهم أقاربه وأصدقاؤه.

ولقد كان أبو الفرج من المتشيعين وكان ابن الرومى متهما بالتشيع ولم تكن هذه الصلة شفيعا له عنده، ولا سببا يدعوه إلى التنويه بذكره.

٢ - هجاء البحترى والأخفش

ولقد هجا ابن الرومى البحترى الشاعر هجاء مقذعا. وأفرط فى شتمه. وكانت للبحترى مكانة بين أعيان الدولة وكبار رجالها - حتى بعد موته - وقد رأينا أن أبا الفرج كان يحبه ويشيد بذكره ويعنى بآثاره. ولايتسع هذا المقام الضيق للإسهاب فى ذلك وشرح الأسباب التى دعت اليها فلنجتزئ بقوله فى هجائه من قصيدة:

قد قلت - إذ نحلوه الشعر - حاشى له

إن البروك به أولى من الخبب

وفيها يقول

وحسبه من حياء القوم أن يهبوا

له قفاه ـ إذا مامر مر ـ بالعصب [1]

ثم يقول:

الحظ أعمى، ولولا ذاك لم تره

للبحترى بلا عقل ولا أدب

٣ ـ أدبنا الرفيع:

بدأ (الكيلانى) حياته بابن الرومى ـ قبل المازنى والعقاد ـ حيث حقق ديوانه.

وقيل له يوما ما: أكان شؤما عليك كما كان شؤما على المازنى، فهيضت ساقه، والعقاد، فدخل السجن؟

فقال: لقد كان شؤما على نفسه!

وكما أعد ديوان (ابن الرومى) أصلح ديوان ابن زيدون الذى لم يكن مطبوعا، كما أنه أخرج فى سنه ١٩٢٣، كتابه عن رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى.

---

(١) جماعات الناس.

فاذا قيل: إن كتابه عن (الاغانى العالمية) التى ترجمها إلى العربية شعرا وموسيقى، هو أعظم أعماله ـ وهو الرائد لهذا الفن ـ قيل: إن هنالك عملا أجل خطرا، لم يعرف عنه الناس شيئا بعد بالرغم من جلاله وخطره.

هذا العمل، يعتبر مفتاح شخصية كامل كيلانى الأصيلة، فالذين شهدوا «الكيلانى» وهو يتصدر (صالونه) الأدبى ويدير الحديث بلباقته الفذة يلمحون هذه الخصلة من خصاله.

انه ما من فن، أو علم أو معنى يتحدث عنه الناس فى أدب من الآداب الا وجد له ضريبا فى اللغة العربية، وقد جمع عن هذه (المعركة المشتركة ألفا وثمانمائة صورة) وهو يقول:

إنها أبرع عملية فكرية فى الغرب بشهادة كبار النقاد، وقد أردت ايراد هذه المعانى، وما يقابلها فى الآداب العالمية، لأقنع الشباب بجلال أدبنا، وأضفت اليها خمسا وعشرين عملية فكرية من الادب العربى، لا ضريب لها فى الأدب الغربى، بجميع فنونه وألوانه.

وقد روى الاستاذ (كامل كيلانى) كيف بدأ هذا الاتجاه، أيام كان طالبا فى كلية الآداب، يستمع الى أستاذه (برسى وايت) عام ١٩١٨م.

وقد عرف فيه أستاذه ابتسامته، ذات المعنى، فقد كان يلاحظه. فاذا ابتسم قال له أستاذه «برسى وايت» هل لها مثيل بالعربية؟

وقد بدأ هذا الحوار عندما سأل أستاذه عن رأيه فى قصة (هى أو عائشة) فقال: (تحت درجة الاحتقار).

وقال الكيلانى الطالب فى كلية الآداب:

(ابن الرومى) يقول فى هذا المعنى:

فلم أجد قيمته تسوى   قومته بالشتم يهدى له

واليكن عرضا قيما، من المعانى المشتركة بين الأدبين: العربى، والغربى، ولنسمعه حيث يروى عن ذلك فيقول:

٤ ـ من المعانى المشتركة: مرساة السفينة

كان أستاذ الأدب الفرنسى يحاضرنا فى شعر (لامرتين). فلما عرض لقصيدة (البحيرة) طالت بنا وقفة الإعجاب حين تلا علينا المحاضر أول القصيدة الرائعة التى بدأها الشاعر المبدع بقوله:

هكذا نطل دائما مدفوعين إلى سواحل جديدة من الحياة فى ليل الأبدية المظلم لارجع ولا عود.

فهل يتاح لنا أن نلقى مرساة سفينتنا فوق أوقيانوس الزمن؟ وهل يقر قرارنا يوما واحدا؟

طالت وقفة الاعجاب بما وفق إليه الشاعر الملهم من خيال بارع حين تمثل سفينة الحياة تندفع إلى الأمام فى غير تريث ولا توقف، منتقلة دائبة التنقل من شاطئ إلى شاطئ، متمنيا لو أتاح له القدر الدائب وسيلة يقف بها سير الزمن ريثما يتمتع بالبقاء مع من يحب ولو يوما واحدا.

كانت فكرة طريفة حقا، ولكنها لم تكن وقفا على خيال الشاعر الفرنسى وحده.

دار بيننا حوار طويل نسيت أن أذكره، وبقى فى ذهنى بعض ماأوردته حينئذ من روائع ماقد أبدع شعراؤنا من الصور حين تحدثوا عن الزمن.

إن مرساة السفينة التى أبدعها خيال (لامرتين) ليقف بها سير الزمن تذكرنا بالحبال التى أبدعها امرؤ القيس منذ خمسة عشر قرنا فى معلقته الخالدة، حين تمثل نجوم ليله الطويل، مشدودة إلى جبل يذبل بتلك الحبال المتينة المحكمة الفتل، وقد خيل إليه الضجر أن نجوم السماء ثبتت فى أماكنها تثبيتا، وأن الفلك قد كف عن الدوران، فصاح متبرما:

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل!

والفرق بين الصورتين أن الشاعر العربى ضجر بطول الليل، فتمثل الزمن قد كف عن السير، بعد أن شدت نجوم ليله بالحبل.

وعلى العكس من ذلك أحس (لامرتين) أن ساعة البهجة توشك أن تفر من وجهه، فتمنى لو ربط سفينة الزمن بحبل متين، لتقف عن السير.

وقديما صرخ الشاعر العربى القديم (مالك بن الريب) حينما انتهت به رحلته الطويلة إلى اجتياز أشجار الغضا، ونزل عن ناقته ليستريح من عناء السير. فلدغته أفعى. فلما شعر بدنو أجله، ورأى السم يسرى فى عروقه، أنشد قصيدته المبدعة، متمنيا لو طالت به الرحلة بين أشجار الغضا دون توقف، حتى لاينتهى به الاستقرار إلى هذه الخاتمة قال:

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

وما أكثر من تمنى طول الزمن، وما أكثر من تمنى قصره!

وللشريف الرضى شكاية مزدوجة من طول الزمن وقصره جميعا، فهو يقول:

أشكو الليالى غير معتبة إما من الطول أو من القصر

تطول فى هجرهم وتقصر فى الوصـ ـــل فلا تلتقى على قدر

ياليلة كاد من تقاصرها يعثر فيها العشاء بالسحر

وللبحترى لفتة بارعة. فهو لايقنع بوقوف الزمن يوما واحدا، كما قنع (لامرتين) فى قصيدة البحيرة ــ بل تشتد به الرغبة فى استعادة ماسلف من الأزمان. فهو يقول:

ليت أن الأيام قام عليها من اذا مامضى زمان يعيده

وقريب من هذا قول شيخ المعرة:

فليت الفتى كالبدر جدد عمره يعود هلالا كلما فنى الشهر

وقوله:

وأطربنى الزمان غداة ولى فليت سنيه صوت يستعاد

وهذا (ابن الفارض) يشارك (لامرتين فى أمنيته فيود لو وقف الزمن عن سيره، ليمتع بما هو غارق فيه من بهجة فيقول:

يا ليل طل، يانوم زل ياصبح قف لا تطلع

ويصف المعرى شعور المحب، يرجو أن يطول الليل قليلا، ولو بذل فى ذلك سواد القلب والبصر، فيقول:

يود أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر

٥ ـ أقل من أن يحتقر

قال كامل كيلانى:

كانت إحدى الصحف اليومية تنشر قصصا طويلة فى أعدادها المتتابعة لأحد كتاب الغرب، وكان أكثر القراء شديدى الاعجاب بذلك القاص.

وفى يوم ما، خطر لأحد (الزملاء) من الطلاب أن يعرف رأى أستاذ الادب الإنجليزى فى ذلك الكاتب القصصى، فإن الجواب مفاجأة لسامعيه.

فلم أتمالك أن أبتسم. فسألنى الاستاذ: ما الذى يدعوك إلى الابتسام!

فقلت: أعجبنى طرافة الجواب، فابتسمت.

فقال الأستاذ «ثم ماذا» ؟

قلت: وذكرت قول (ابن الرومى) فى مثل هذا الكاتب:

قومته بالشتم يهدى له   فلم أجد قيمته تسوى

وقفز إلى خاطرى قول (دعبل):

أما الهجاء فدق عرضك دونه   والمدح عنك كما علمت جليل

فاذهب فأنت طليق عرضك، إنه   عرض عززت به وأنت ذليل

وقول آخر:

نجا بك عرضك منجى الذباب حـمـتـه قـذارته أن يـنـالا

وقول (أبى نواس) فى دعى تعرض له بالشتم:

ما أنت بالحر فيلحى، ولا بالعبد نستعتبه بالعصا

النقاد وكامل كيلاني:

عاش (كامل كيلانى) حياته فكرة خصبة منوعة، وكانت آثاره الفكرية مع دقتها موضوع التقدير والنقد والجدل، وكان النقاد فى هذه الفترة يواجهون الآثار الادبية التى تصدر بأقلام مستعدة للنزال والعراك.

وقال الكيلانى: (إن شعارى فى الأدب هو أنه ليس من حقى أن أمنع الناقد من الكلام، ولكن من حقى ألا أصغى إليه).

أصدر (كامل كيلانى) فى فترة عام ١٩٢٨ م إلى عام ١٩٤٦م عددا كبيرا من المؤلفات تناول الكتاب منها بالنقد هذه المجموعة.

مصارع الخلفاء ـ مختار القصص ـ روائع من قصص الغرب ـ ملوك الطوائف ـ فن الكتابة ـ حديقة أبى العلاء ـ رسالة الغفران ـ ديوان ابن الرومى ـ ديوان ابن زيدون.

وإننا لو نظرنا إلى اختلاف نظريات النقاد والمؤلف وجدناها فى الغالب، اختلافا لفظيا، لايمس الفكرة، ولا الجوهر بأى مساس.

وكان الكيلانى بجانب ذلك، يؤمن بالعمل الايجابى للبناء وحده فكان يصرف وقته كله فى الانتاج. ثم يدفع إلى المطبعة بكتبه الواحد بعد الآخر ويدعها تحيا، كأنها شخوص حقيقية. ولذلك نجده لايهتم بالنقد، قدر اهتمامه بالتأليف والاخراج اللذين عنى بهما، وتفانى من أجلهما.

وكان يؤمن بالحكمة القائلة:

(خير العمل أدومه وإن قل).

ويرى أن (أبا العلاء) قد أجاد فى بيته الذى يقول فيه:

فلتفعل النفس الجميل لأنه ... خير وأحسن لا لأجل ثوابها

تأديب التاريخ

بدأ (كامل كيلانى) حياته الأدبية وفق أسلوب يوحى بأن مكانه الطبيعى إنما هو بين صفوف الادباء.

وكان اتجاهه إلى التاريخ أغلب، إذ كتب عن: (ملوك الطوائف) و (مصارع الخلفاء) و (مصارع الأعيان).

ثم اتصل بالأدب الأندلسى، واتجه بعد ذلك ـ بعنف إلى (المعرى) حيث عاش معه طويلا، وتأثر به، حتى غدا رفيقه فى كل لحظات حياته.

ولكن مع كل ذلك اتجه وجهة ثقافية عالية، إذ قام بدور هام من أجل الانتفاع بالتراث الإسلامى والعربى عن طريق الفن القصصى. فكان دوره إزاء ذلك هو تأديب التاريخ واللغة، فجعل من التاريخ واللغة أدبا مستساغا، عن طريق الاقصوصة الجميلة، والمثل العربى الأصيل وهانحن أولاء نعرض نماذج لذلك، فنراه يقول:

الوعظ الكاذب

قال الكيلانى:

قال لى ولدى مصطفى يوما ما، وعلى وجهه أمارات الدهشة والعجب:

«إنك توصينى ياأبى بالصدق!»

قلت نعم!

قال: «وتنهانى عن الكذب».

قلت نعم!

قال: «كذلك تفعل المعلمة».

قلت: «حسن.. فماذا حدث؟»

قال:

«حدث أن معلمتى - التى توصينى بالصدق، وتمدحه لى وتنهانى عن الكذب، وتبغضنى فيه - قد كذبت».

قلت:

وكيف كذبت يامصطفى؟».

قال:

«إنها ضربتنى، فشكوتها إليك، فلما سألتها أنكرت».

فما ترون أيها السادة؟

إذا كان هذا الطفل - وهو لم يتعد السادسة من سنى حياته - قد فطن إلى التناقض بين قول المدرسة، وفعلها، وأدرك أنها تأمر بما لاتأمر به نفسها، أفتروننى قد بالغت إذ قلت:

إن أذهان العامة لن تكون أقل من ذهن هذا الطفل إدراكا وفهما لما يقع من التناقض بين أقوال وعاظهم، ومرشديهم، وأفعالهم؟

الحق أن العامة - مهما بلغ بهم الجهل - لن يكونوا أقل انتقادا لوعاظهم من الأطفال.

ولست أدرى كيف يأمرنا الواعظ بالصدق ويكذب؟

وكيف يأمرنا بترك الحلف ويحلف، كذلك الذى يقول: «والله ماحلفت صادقا ولا كاذبا» أو كذلك الذى أراد ألا يبوح بحب معشوقته فباح بها فى قوله:

لا لا أبوح بحب بثنة إنها أخذت على مواثقا وعهودا

وكيف يأمرنا الواعظ بحسن المعاملة، وهو نفسه أسوأ مثل للمعاملة؟.

وكيف تمتلىء قلوبنا خشية من واعظ منافق، يأمر بما لايأتمر به، ويقرر مالا يفعل، وكيف نخلد بثقتنا إلى رجل:

طلب الحسائر وارتقى فى منبر يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامه أضحى يمثل فى النفوس ذهولها

نعم، كيف نصغى إلى واعظ وصفه أبو العلاء، وأبدع فى وصفه فقال:

رويدك قد غررت - وأنت ندب بصاحب حيلة - يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا ويشربها - على عمد - مساء
اذا فعل الفتى ماعنه ينهى فمن جهتين - لا جهة - أساء

فإن كان بعض الوعاظ يحسب أن مايقترفه سرا مستورا غير معروف ولا ذائع، فما أشد ضلالته ووهمه!

قال كاتب إنجليزى:

إذا دار بخلدك ـ لحظة واحدة ـ أن أسرارك التى تحرص عليها، وتمعن فى تكتمها لم يعرفها الناس جميعا، فقد خدعت نفسك خداعا بينا.

وقال الشاعر العربى:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس ـ تعلم

أخلاق الصحابة

لقد أفاد الناس من أخلاق النبى ﷺ وأعماله، أضعاف ما أفادوا من أقواله ومواعظه.

كذلك كان الصحابة والخلفاء الراشدون أئمة للأخلاق الفاضلة. فأفاد الناس من أفعالهم أضعاف ما أفادوا من أقوالهم.

ألا ترون مثلا إلى عمر بن الخطاب، يجلد ولده ـ عقابا له ـ ولا يتهاون في إقامة الحد عليه؟

ثم ألا ترون إليه، وهو يعنف ابن العاص بقولته الحكيمة المأثورة:

(متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟).

ألا ترون إليه تخطئه امرأة، فيعترف لها بالغلبة ويذعن للحق إذعانا ويقول قولته المشهورة:

(أخطأ عمر، وأصابت امرأة؟)

وليس هذا الا مثلا من أمثلة عدة يعيينا أن نتقصاها.

ألا ترون إلى (كاميل فلا ماريون) مثلا كيف عاقب نفسه بغرامة ـ وقد كان قاضيا ـ فأصدر على نفسه حكما، كما يصدره على عامة الناس؟

ألم تسمعوا قصة القاضى الذى أهانه ابن مليكه ـ وهو فى منصة القضاء فزج به فى السجن، فلما علم الملك بذلك فرح أشد الفرح، وقال:

(الحمد لله الذى جعل فى بلادى قضاة يقيمون العدل حتى على ولدى نفسه).

موقعة أحد ـ عاقبة المخالفة:

كان النصر محققا للمسلمين فى بداية الموقعة.

فلما خالفوا أمر النبى عليه الصلاة والسلام، وانتقلوا من مواضعهم كر عليهم المشركون، وقتلوا منهم عددا كبيرا، فيهم حمزة عم النبى ﷺ، واستطاع العدو أن يخلص إلى النبى، فيرميه بالحجارة.

فأصيبت رباعيته، وشج وجهه، وكلمت شفتاه، ودخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته. وسقط فى إحدى الحفر التى حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون.

وبذا تتبين لنا عاقبة المخالفة.

وفاء الصحابة

على أنه فى موقعة أحد السالفة الذكر، يتجلى لنا مثل عال من أمثلة الاخلاص، والتفانى فى الوفاء. اذ يقبل الصحابة على النبى عليه الصلاة والسلام مستبسلين يفدونه بأرواحهم.

يأخذه على بيده.

ويرفعه طلحة بن عبيد الله.

ويحيط به جماعة من الانصار والمهاجرين ليقوه السوء بنفوسهم.

وتتجلى شجاعة المرأة العربية واضحة، فلا تقل عن شجاعة (جان دارك) التى لايكاد يخلو من ذكرها كتاب فرنسى من كتب التاريخ، والتى ملأوا الدنيا اعجابا بها.

تنحاز (نسبية بنت كعب) إلى النبى ﷺ، وتتفانى فى الذود عنه، وكانت تسقى فى أول النهار. فلما رأت هزيمة المسلمين أسرعت إلى النبى تفديه بنفسها، ضاربة بسيفها مرة، ورامية عن قوسها أخرى، حتى أثخنتها الجروح!

فضل الصبر (صبر الصحابة)

كان النبى عليه الصلاة والسلام، يذكر يوما ما قد لاقى من قومه من الجهد والشدة قال:

«لقد مكثت أياما، وصاحبى هذا (يشير إلى أبى بكر) بضع عشرة ليلة مالنا فيها من طعام الا البرير (ثمر الأراك أو السواك) فى شعب الجبال».

وكان عتبة بن غزوان يقول فى وصف الشدة التى كانوا عليها بمكة:

(لقد مكثنا زمانا، مالنا من طعام إلا ورق البشام. أكلناه حتى تقرحت أشداقنا. ولقد وجدت يوما ثمرة، فجعلتها بينى وبين سعد، وما منا اليوم الا وهو أمير على كورة).

وكانوا يقولون فيمن وجد تمرة فقسمها بينه وبين صاحبه: (إن أسعد الرجلين من حصلت النواة فى قسمه، يلوكها طول يومه وليلته، من عدم القوت).

الاعتداد بالنفس:

جاء ﷺ يوما، ليدخل الكعبة.

فدفعه عثمان بن طلحة العبدرى، فقال:

(لا تفعل ياعثمان. فكأنك ومفتاحها بيدى أضعه حيث شئت)

فقال: (لقد ذلت قريش وقلت)

فقال: (بل كثرت وعزت)

وانظروا إلى حواره ﷺ، مع قريش، حين قالت له تفاخره: (هل أتباعك من هؤلاء الموالى (كبلال، وعمار، وصهيب) خير من قصى بن كلاب، وعبد مناف، وهاشم، وعبد شمس؟

فقال: نعم: والله لو كانوا قليلا ليكثرن، ولئن كانوا ضعفاء ليشرفن حتى يصيروا نجوما يهتدى بهم، ويقتدى، فيقال:

(هذا قول فلان)

(وذكر فلان)

فلا تفاخرونى بآبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية.

اتبعونى ،أجعلكم أنسابا.

والذى نفسى بيده، لتقتسمن كنوز كسرى وقيصر.

فقال له عمه أبوطالب:

«إبق على وعلى نفسك».

فظن النبى أنه خاذله، فقال: (ياعم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ماتركته) ثم استعبر باكيا، ثم قام، فلما ولى ناداه»: «أقبل يا ابن أخى» فأقبل. فقال:

«إذهب، وقل ماشئت، فو الله لا أسلمنك لسوء أبدا.»

تدريس النحو والقواعد بالقصص.

لقد بلغ ولوع بعض الناس بالأسلوب القصصى حدا عجيبا:

أذكر لكم ـ على سبيل المثال ـ أن مدرسا فاضلا من مدرسى العربية كان يدرس لنا ـ فى مدرسة أم عباس الابتدائية. وكانت نتائجه أبهر النتائج، وتلاميذه أقوى التلاميذ. وكان السر فى ذلك، هو إسرافه فى حب القصص وقد بلغ به ولعه بالأسلوب القصصى حدا مدهشا جعله يشرح لنا ـ فى قواعد اللغة العربية ـ «أثر كان وأخواتها وأثر إن وأخواتها» بأسلوب قصصى جذاب يحبب فى النحو أزهد الناس فى النحو.

كان يشرح لنا أثر كان وأخواتها فى معموليها، وأثر أن وأخواتها، كذلك يقول:

المبتدأ والخبر، أخوان. وهما دائما رافعا الرأس. ففى ذات يوم بينما هما جالسان فى بيتهما إذ سمعا قرعا بالباب. فأسرعا إلى زائرهما، ففتحا له الباب، ورحبا به، وأرادا أن يقدما له شيئا من الحفاوة، بعد أن سألاه عن اسمه، فقال لهم «اسمى كان».

فقالا لها:

«أهلا وسهلا ومرحبا، ماذا نستطيع أن نقدم لك من قرى وإكرام؟

فقالت:

«أريد أن أصاحبكما، وأن تترك صحبتى أثرا ظاهرا أكون معروفة به من بين رفاقكما جميعا».

فقالا:

«وأى أثر تريدين؟»

فقالت:

«أن أنصب أحدكما»

فلا تكاد تتم قولها، حتى يتقدم إليها الخبر، مرحبا بشرطها هذا، راضيا بحكمها.

وإنهم لكذلك اذ يسمعون قرعا عنيفا بالباب. فإذا فتحوه وجدوا طائفة من الضيفان، فيسألونهم:

«من أنتم؟» فيقولون لهم: «نحن أخوات كان»

وبعد أخذ ورد يظفرون بمثل ماظفرت به كان.

فإذا جاء اليوم التالى جاءت «إن» زائرة. وطلبت إليهما أن يمنحاها ميزة، كما منحا كان بالأمس.

فيتقدم المبتدأ فى هذه المرة مرحبا بشرطها. ولايكاد يفعل حتى تأتى جميع أخوات إن طالبة مثل طلبها فيظفرن به.

هكذا كان يسلك ذلك المدرس الظريف، فى شرح النحو وتحبيبه إلى نفوس الطلبة. وهى طريقة ظريفة كانت تحبب الطلبة فى دروسهم وترغبهم فى الافادة من علمه.

ثم ذكر الكيلانى أمثلة أخرى كثيرة، وختمها بقوله:

فإذا أردت مثل العقوق، ومثل الوفاء، فأمامك حكاية (أبى صير وأبى قير) وهى من (ألف ليلة وليلة).

وإذا أردت مثل القضاء، والقدر، فأمامك حكاية (الملك العجيب) وهى من (ألف ليلة وليلة) أيضا.

وإذا أردت مثلا على أن لكل مقام مقالا فاقرأ حكاية العم «عمارة» وهى مشهورة. لا حاجة بنا لذكرها.

وجملة القول أن القصص وضرب الأمثلة محببان إلى نفوس الكبار والصغار معا، وهما من خير الوسائل التى يلجأ إليها المتكلم، لتقرير فكره، أو لتعزيز مبدأ فى أذهان سامعيه.

موازنة بين جحا وأبى العلاء وابن الرومى

الأسلوب الجحوى:

لقد كان الأسلوب الجحوى ومازال مثالا رائعا يفيض من اشراقه ومرحه على حقائق الحياة الحرة، فيكسوها من ألوانه الزاهية جدة واشراقا.

والأسلوب الجحوى الباسم، يكاد يقابل الاسلوب العلائى العابس حتى ليبلغ جحا ـ أحيانا ـ فى سبر أغوار الحياة المرحة الباسمة، مايبلغه المعرى بسخريته العابثة القاتمة.

تقسيم الأرزاق

فنحن اذا استمعنا إلى صرخة (ابن الرومى) وحيرته فى تقسيم الأرزاق، وما فيها من تفاوت يحار فى تعليله اللب، وينقطع منه نياط القلب، حين يقول:

لاتعجبن لمرزوق به هوج حظا تخطى أصيل الرأى أطرافا
فخالق الناس أعراء بلا وبر كاسى البهائم أوبارا وأصوافا

أو يقول:

إن للحظ كيمياء إذا ما مس كلبا أحاله إنسان
يفعل الله مايشاء كما شا ء متى شاء كائنا ما كانا

إلى آخر مايزخر به غلاة الساخطين الناقمين من أساليب تكاد لفرط عنفها تلتهب التهابا، وتكاد لغليانها تقذف بالحمم، وترمى بشواظ نيران الفكر، ويكاد أهاب قائلها يتقطع من الغيظ والنقمة.

ثم رحنا نسمع إلى (جحا)، لنتعرف كيف يعبر عن هذه المعانى الحزينة بأسلوبه الباسم الذى تنطوى فى ابتسامته أعنف معانى المرارة والجد، رأينا العجب العاجب:

رأينا فيلسوفنا الساخر يحتكم إليه أربعة من عارفيه، ليقسم بينهم (زكيبة) مملوءة بلحا:

فماذا يصنع ليعبر بأسلوبه المرح عن تلك المعانى الملتهبة التى عرض لها أعلام الساخطين على توزيع الأرزاق؟

يقبل عليهم متبالها ويسألهم متغابيا: أى قسمة تريدون: قسمتى أم قسمة الله؟

فيجيبوا على الفور: (بل قسمة الله ياجحا).

فيعطى أحدهم بلحات خمسا أو ستا.

ويعطى الثانى حفنتين أو ثلاثا.

ثم يعطى الثالث كل ما فى الغرارة من بلح.

ثم يحرم الرابع، فلا يعطيه شيئا!

ويتركه يضرب كفا على كف من فرط الحيرة والدهشة.

فإذا سألوه: أى قسمة هذه ياجحا؟

أجاب فى تغافل الساخر العميق:

أليست هذه قسمة الله؟ أليس يعطى واحدا دراهم معدودة، ويعطى الثانى المئات من الدنانير، ويعطى الثالث من خزائن الأرض وكنوزها ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة.

ثم يترك الرابع، فلا يعطيه شيئا؟

أليس فى هذا لون من التعبير الجحوى الباسم المرح، يترجم عن قول الكثيرين من كبار الساخطين؟

أليس فى هذا لون من قول المعرى:

كذلك مجرى الرزق: واد. به ندى

وواد. به فيض، وآخر ذو قفر؟

وقوله:

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته فقير معرى أو أمير مدوج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ويحرم قوتا واحدا وهو أحوج

وقول الحلاج:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

إلى آخر ماقاله المبدعون الساخطون.

ولقد أكثر الشعراء، وافتنوا فى وصف سوء الحظ، ولكن قل من بلغ منهم مبلغ صاحبنا فى التعبير بالدعابة التالية:

قالوا إن النحس لازمه أياما، فلم يكد يهم بشراء قطعة من الصابون ليغسل ثيابه بها حتى تتلبد السماء بالغيوم وتتكاثف السحب، وتدوى الرعود وتبرق البروق. وذهب ذات يوم إلى بائع الصابون ليدفع له دينا اقترضه منه، ولم يبلغ دكان صاحبه ويهم بإعطائه دينه حتى غامت السماء، وتكاثفت السحب ودوى الرعد، وأبرق البرق.

فحملق إلى السماء متظاهرا بالدهشة وهو يقول: عفوك اللهم، فما أردت شراء صابون لغسل ثيابى، ولكنى أردت قضاء دينى لبائع الصابون!

فائدة المصائب

وإذا قال (ابن الرومى):

ومحال أن يسعد السعداء الد ... هر الا بشقوة الأشقياء

وقال المتنبى:

بذا قضت الأيام مابين أهلها ... مصائب قوم عند قوم فوائد

وقال أبو العلاء:

غنى زيد يكون لفقر عمرو ... وأحكام الحوادث لايقسنه

وحجر فى الحقيقة مثل حجر ... ولكن الحروف به عكسنه

وقال:

وسخط الظباء بما نالها ... تولد منه رضا الحابل

فكيف يعبر صاحبنا عن هذا المعنى بأسلوبه الجحوى الرائع:

يخبرنا الرواة أن (جحا) سافر ذات مرة لزيارة بنتيه، وكان زوج أولاهما زارعا. وزوج الأخرى فخاريا: يصنع الفخار ويبيعه.

فعرج على الأولى يسألها:

كيف أنت؟

فأجابته: بخير ـ يا أبتاه ـ إذا أغاثنا الله فى هذا العام بما نأمله من الغيث. فادع لنا الله سبحانه أن ينزل علينا أمطارا غزيرة تحيى موات أرضنا، وتجلب لنا ما نرجوه من رخاء وهناءة.

ثم عرج على الأخرى، ولما سألها عن حالها أجابته:

نحن بخير ياأبتاه ـ اذا انقطع الغيث عنا فى هذا العام، فادع لنا الله أن يكف عنا المطر حتى ينجو من البوار والتلف ماعندنا من الآنية والتحف، التى جهدنا فى صنعها من الفخار والخزف. فخرج صاحبنا وهو لايدرى بأى الدعوتين يبتهل إلى الله؟

فمصيبة هذه، فائدة تلك، واستجابة احدى الدعوتين ـ كما ترى ـ شقاء احدى بنتيه وهناءة لأخرى. ولا مناص من ذلك على أى الحالين؟

وفى هذه القصة تعبير رائع عن قول المتنبى الذى أسلفناه، حيث قال:

بذا قضت الأيام مابين أهلها　　　مصائب قوم عند قوم فوائد

ثم يخبرنا الرواة أيضا أن لصا سرق من جحا عشرين دينارا.

فذهب جحا إلى المسجد ضارعا إلى الله أن يعيدها إليه.
وأراد الله سبحانه أن يلهم تاجرا من أهل القرية كادت العواصف تغرق سفينته أن ينذر لذلكم الرجل الصالح عشرين دينارا اذا كتب الله السلامة لمركبه.

فلما ظفر التاجر بالسلامة، وفى صاحبنا بنذره بعد أن قص عليه قصته. فأطرق (جحا) برأسه إلى الأرض ثم قال، بعد تأمل عميق:

(تباركت يارب فى علاك)

لو أننى سلفت أحدا هذا المبلغ لأعاده فى هدوء، دون أن يخطر على باله أن يزعج أحدا أو يعرض حياته للتلف ليرد مبلغى إلى.

وهو - كما ترى - تعبير جحوى بارع ينطوى - فى فكاهته - على أقصى الجد المرير.

وفى هذا يقول فى بعض خواطره:

وهكذا ترك لى (أبو مرة ظالم بن الحارث) زاده كله، فرحت آكل من طعامه هنيئا مريئا بعد أن هيأت لى كوارثه، ونكباته، ما لم تهيئه لى مباهجه ومسراته. إلى أن يقول:

وكم سعد سعيد بشقوة شقى. وكم للقدر من تصريف خفى.

وغرق مركب بمن فيه، ولم ينج أحد من راكبيه، فهلك المسافرون والربان، وراحوا زادا للسمك والحيتان!

تم هذا كله. فكان ماذا؟

قامت المنادب فى ديار الغرقى والمناحات، وأعلنت الأفراح فى قاع البحر وعمت المباهج والمسرات!

ولولا غرق المركب بمن فيه من الناس، ما تم للسمك مايطمح إليه من بشر وايناس، وما كانت الولائم والأعراس. وكم للقدر من عجائب وفنون. ولله فى خلقه شئون!.

موازنة بين الحقيقة والخيال

الخيال كالمجهر يكشف من دقائق الفكرة وخفاياها وأسرارها، كما يكشف المجهر دقائق الذرة، وخواص تركيبها.

والخيال هو إحدى وسائل الشاعر والكاتب والقاص، تلك التى يستعين بها على توضيح ماغمض من الحقائق، وتبيان ما استتر واحتجب من المعانى الدقيقة والخوالج النفسية الخفية.

وكما يلجأ المصور إلى التصوير الكاريكاتيرى، ليظهرك على جوانب خفية لا يصل إلى توضيحها التصوير العادى، وكما يلجأ الحاسبون إلى الرموز الجبرية ليصلوا بها إلى حقائق عددية، لا سبيل إلى استخراجها بغير هذه الرموز، فكذلك يلجأ

صاحب القصة والمثل والأسطورة إلى أشباه هذه الرموز الجبرية ليتوصلوا بها إلى حقائق ثابتة لا سبيل إلى إدراكها بغير هذا الطريق.

بحوث لغوية

صور جديدة من الأدب العربي.

مناظرة الكسائي وسيبويه

مسألة العقرب والزنبار.

كان من أثر المناظرة التى قامت بين الهمدانى و(الخوارزمى) أن الخوارزمى مات بعد قليل من الزمن، ولم تحتمل شيخوخته تلك الصدمة العنيفة.

وكان من أثر المناظرة التى قامت بين الكسائى وسيبويه أن سيبويه مات كمدا، وهو فى ريعان شبابه وجن نشاطه، كما يقولون - ولم يحتمل شبابه تلك الهزيمة القاتلة.

وليست الطرق التى لجأ اليها الكسائى بأقل قسوة من تلك الطرق التى سلكها (الهمدانى) للتغلب على الخوارزمى والانتصار عليه.

على أن الهمدانى، قد أعد عدته وهيأ لنفسه كل أسباب الانتصار والفوز على خصمه. وزج به فى، مجلس كله خصومة

ولدد، وأقول فى هذه المناظرة: إن الكسائى لم يقصر فى اعداد كل الوسائل لهدم سيبويه، ولم يتعفف عن شئ فى سبيل الانتصار عليه. وإذا كان الهمدانى قد لجأ إلى تملق شهود المناظرة لينصروه على الخوارزمى، واشترى ذممهم بهذه الحيلة فإن الكسائى قد لجأ أيضا إلى نفوذه وجاهه وماله، واتخذ من صداقته للبرامكة وكونه مؤدب أولاد أمير المؤمنين وسيلة للتغلب على سيبويه.

ولئن شكونا فى المناظرة السابقة قلة المصادر التى نرجع إليها فى تحقيقها ولم نجد غير رواية (الهمذانى) نفسه - وهى رواية خصم عن خصمه - إن ما نشكوه فى هذه المناظرة هو تعدد المصادر وكثرتها، وتباين روايتها، وأثر التعصب فيها وتعمد التشويه.

على أن هذه الروايات، على الرغم من اضطراب بعضها واختلافه فى التفاصيل، متفقةفى الأساس والجوهر. فهى - من أية ناحية رأيت، وبأية رواية أخذت - تدل على أن سيبويه قد ظلم، وأن الحق كان فى جانبه.

وقد أجمع علماء النحو واللغة - فى زمن سيبويه وبعد زمنه - على أن الصواب ما قال. وأن الكسائى كان فى الجانب الخاطئ. ولم يشذ عن هذا الاجتماع الاشيعة الكسائى،

والطامعون فى ماله أو جاهه، والمحسوبون عليه، وذوو الحاجات وطلاب المآرب الذاتية.

وليست هذه المناظرة على الحقيقة - إن صح أن نسميها مناظرة - إلا نضالا بين مذهبين، وحربا بين مدرستين، مدرسة الكوفيين، ومدرسة البصريين، ممثلتين فى شخص الكسائى زعيم علماء النحو فى الكوفة وشيخ مدينة الاسلام، وسيبويه زعيم علماء النحو فى البصرة وتلميذ الخليل بن احمد ابن سيد أهل الأدب ـ كما كانوا يلقبونه ـ وقد لعبت الأهواء من سياسية وغيرها فى تغليب رأى الكسائى على رأى سيبويه [١].

على أن فضل سيبويه ذائع - على الرغم من انتصار الكسائى عليه - وكتابه الذى ألفه فى النحو لم تبل جدته إلى اليوم. ومازال كتاب نحو وأدب معا. وأسلوبه فى أعلى طبقات البلاغة. وقد كان المبرد يقول لمن يريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه (هل ركبت البحر؟) تعظيما لشأنه.

وكان الزجاج يقول: «إذا تأملت الأمثلة من كتاب سيبويه تبينت أنه أعلم الناس باللغة.

---

(١) كان العباسيون يقربون اليهم الكوفيين لأنهم نصروهم فى دعوتهم لقيام دولتهم، وكان لهذا الاعتبار أكبر الاثر فى اتصالهم بالخلفاء.

كيف كانت المناظرة؟

لم يكد يرد سيبويه العراق، حتى شعر الكسائى أن مركزه العلمى فى خطر، وأن منافسا جديدا يحاول أن يغتصب منه مقام الزعامة.

قالوا: «وشق أمره على الكسائى فأتى جعفرا ويحيى ابنى برمك وقال: «أنا وليكما وصاحبكما. وهذا الرجل إنما قدم إلى العراق ليذهب محلى».

قالا: فاحتل لنفسك فانا سنجمع بينكما.

وهكذا دبرت المؤامرة فى بيت البرامكة لهدم سيبويه. فلما حان الموعد حضر سيبويه. وجاء الكسائى ومعه الفراء والأحمر وغيرهما من أصحابه. فسأله الفراء عن مسألة فلم يكد يجيبه عنها حتى قال له: «أخطات» وسأله عن ثانية، فأجابه، فقال له «أخطأت».

ثم سأله عن ثالثة، وقال له: «أخطات».

فقال له سيبويه: (هذا سوء أدب منك».

فقال الفراء لصاحبه: «يظهر أن فى هذا الرجل عجلة. وحدة»

وسأله الأحمر عن مسائل عدة، فكان يخطئه فى كل جواب يفوه به.

قالوا: «فلم ير سيبويه إلا أن يكف عن مناقشتهما».

وهنا يقول له الكسائى - ولعلك تلمح فى جملته معنى التحقير والاستصغار «يابصرى» كيف تقول:

كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبار. فإذا هو هى، أو فإذا هو إياها.

قال: «أقول، فاذا هو هى».

فأقبل عليه الجمع فقالوا: أخطات ولحنت».

وفى هذا مثال من التهويش والتحامل على سيبويه.

وهنا يقول يحيى بن خالد بن برمك: «هذا موضوع مشكل حتى يحكم بينكم» فيقول الكسائى:

«هؤلاء الأعراب على الباب».

قالوا: «فأدخل أبو الجراح ومن وجد معه ممن كان يأخذ منه».

فقال لهم الكسائى: كيف تقولون: «قد كنت أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبار، فإذا هو إياها أو هو هى.

فقالت طائفة: فإذا هو هى

وقالت أخرى: فإذا هو إياها

فقال الكسائى: «هذا خلاف ماتقول يابصرى!»

وهنا يقبل يحيى رب الدار على سيبويه - وهو الغريب المستوحش فيقول له مايشعره بأن صاحب الدار من رأى الكسائى وشيعته: «قد تسمع أيها الرجل!».

فلا يكاد سيبويه يسمع هذه الجملة حتى يستكين، ويسرع الكسائى إلى يحيى، فيقول له، حتى يطمئن على أن المناظرة قد انتهت، وأن الغلبة قد تمت له: «أصلح الله الوزير، لقد وفد عليك من بلده مؤملا، فإن رأيت ألا ترده خائبا.

فيأمر له يحيى بعشرة آلاف درهم.

وكأنما ألف الكسائى أن يصطنع الناس بالمال ليضمن لنفسه إقرارهم بزعامته العلمية التى يسعى إلى الانفراد بها عند الخليفة. ولعله حسب أن هذه المنحة تنسى سيبويه تلك الصدمة العنيفة التى سببها له.

على أن الكسائى طالما اشترى بالمال الألسن والذمم:

ألا ترى إلى الأخفش يذهب إلى الكسائى غاضبا - بعد أن أخبره سيبويه بما حدث له معه - فيسأل الكسائى وهو بين تلاميذه ويخطئه فى كل جواب يقوله، فيهم تلاميذ الكسائى بضربه فيمنعهم من ذلك، خوفا من ذيوع أمره. ويقبل عليه

فيعانقه متحببا إليه، ويعهد إليه بتعليم أولاده، ويرشوه بالمال، فينسيه بذلك ثأر صديقه سيبويه؟

الفكاهة الجحوية في الأدب الشعبي

يقول: (كامل كيلانى)

الفاكهة ثمرة الأرض. كما أن الفكاهة ثمرة العقل. وقد اتخذت كل أمة فى كل عصر ومصر، شخصا من الشخوص الجحوية الباسمة رمزا لفكاهاتها، تسند إليه كل طريف من فنون دعابتها. فكثرت الشخوص (الجحوية) لذلك وتعددت. فلم يكد يخلو منها زمان ولا مكان.

وقد عرض القصاصون كثيرا من الطرائف الجحوية، وفصلوا منها أنماطا فكرية، ألبسوها عرائس أفكارهم، وأودعوها نفائس توجيهاتهم وآرائهم. فلم تلبث على مر الأزمان واختلاف الأمم أن تشكلت بألوان العصور والأمم التى قبستها كما يتشكل الماء بلون الاناء الذى يستودعه.

وأصبح الرمز الجحوى - على توالى العصور - أشبه بالرمز الجبرى يختلف مدلوله فى كل مناسبة عما سبقتها.

ولو خلا العالم من أمثال هذه المفارقات لأصبح جحيما لايطاق وطالما استعاذ بها أعلام الفكاهة من المصلحين والقادة فى كسب قضاياهم.

وربما أغنت النكتة العابرة الملهمة. ينطق بها الفكة الموهوب عن المقالات المستفيضة.

وطالما تناول الموهوب الفكه بدعابته أدق الخفايا. فأربى على الغاية وأى فكاهة أبرع من فكاهات (أبى الغصن) (جحا) العربى، حين أذاع أنه سيطير فى أصيل يوم الجمعة القادم، من فوق مئذنة مسجد الكوفة. حتى إذا حان الموعد وتجمع الناس من كل مكان، وضاق بجموعهم الميدان، أطل عليهم (جحا) من أعلى المئذنة، ونظر إليهم ساخرا من بلاهتهم، ومد ذراعيه ملوحا بهما فى الهواء. وحرك يديه مرة بعد أخرى، كأنما يتهيأ للطيران. وقد خيل إلى النظارة أنه جاد فى محاولته.

فلما طال بهم الانتظار، التفت اليهم ساخرا، وقال:

(كنت أظن أن جحا هو وحده المنفرد بالجنون فى هذا البلد. فإذا كل من أرى أجن منه. خبرونى أيها العقلاء: كيف صدقتم أن (جحا) قادر على أن يطير بغير جناحين؟

وكيف يصح فى الأذهان أنى   على إظهار معجزة قدير

وكيف يصدق العقلاء زعمى   ولست بطائر أنى أطير

وأى سخرية أبرع من سخريته من والى الكوفة حين بدأ شكواه قائلا:

إن لمولاى الوالى ـ فيما أعلم ـ ثورا أحمر.

ـ صدقت يا أبا الغصن، فما باله؟

ـ نطح بقرتى البيضاء، فشق بطنها وأخرج أمعاءها وقتلها على الفور.

ـ وما شأن الوالى بذلك؟ وأى سلطان لى على الحيوان؟ أتريد أن أعاقب الثور على فعلته؟

ألا تعلم أن دم الحيوان جبار[1]؟

ـ صبرا ياسيدى، وعفوا، لقد دفعتنى العجلة إلى رواية القصة معكوسة:

ـ ويحك! فماذا كنت قائلا؟

ـ أردت أن أقول: إن بقرتى البيضاء هى التى نطحت ثور مولاى الوالى فقتلته.

ـ ويلك! لقد تغير وجه المسألة الآن، فأعد على القصة، لأرى فيها رأيى من جديد!

وأى قارئ فكاهات هذا الساخر المبدع لايعجب بتهكمه البارع حين سأله جاره (سالم بن دينار) أن يعيره حماره، فاستمهله (جحا) ريثما يستشير حماره فى ذلك.

---

(١) جبار: هدر.

ثم عاد إليه متظاهرا بالأسف!!

ـ ماذا قال الحمار؟

ـ رفض مصاحبتك!

لماذا؟

ـ لأنك ـ فيما تقول ـ لم تجزه على خدمته بأكثر من ضربات على ظهره ولعنات لصاحبه!

أليست هذه الدعابة أروع وأعمق من قول زهير بن أبى سلمى، فى معلقته الخالدة:

ومن يصنع المعروف فى غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم!

وماينبغى أن ننسى إجابته لبعض الحمقي حين تهدد (جحا) أن يقتله إذا عجز عن إجابته عن أربعين سؤالا مختلفا بجواب واحد.

فأنصت إليه جحا، حتى اذا فرغ من أسئلته، قال له متظاهرا بالجد:

ـ أتريد جوابا واحدا عنها جميعا؟

ـ لا أريد غير ذلك.

ـ لا أدرى:

فتكون هذه الكلمة الحكيمة جوابا شافيا لمسائله الاربعين، يخلصه من بطش سيد المجانين!

وما أحكم قضاءه حين يتقدم إليه مختصمان، يدعى أحدهما على صاحبه أنه أكل خبزه على رائحة شوائه، ويطالبه بثمن الشواء الذى لم يأكله.

فيسأله (جحا): وكم ثمن الشواء الذى أعددته له؟

فيجيبه: ربع دينار.

فيأخذ الثمن من الآكل، ويسمع الشواء رنين ربع الدينار، ثم يرجعه إلى صاحبه قائلا:

إن رنين المال ثمن كاف لرائحة الشواء!

ويختصم إليه رجلان آخران، يدعى أحدهما أنه ساعد صاحبه فى حمل حزمة من الحطب بعد أن سأله:

ـ ماذا تعطينى أجرا على مساعدتى إياك؟

فأجابه: لا شئ!

ـ أريد أن يعطينى هذا اللاشئ الذى وعدنى به!

ـ إرفع هذه الوسادة (المخدة) أيها الرجل، وخبرنى:

ـ ماذا ترى تحتها؟

ـ لاشئ.

ـ خذ لاشيئك من تحت الوسادة، واذهب لشأنك!

وهذا، أحمد المعطرى من أعلام الشخوص الجحوية الحديثة فى صنعاء، يأتمر به جماعة من الخبثاء ليورطوه فى مأدبة عشاء، فلا يتردد فى القبول، ويصبر عليهم حتى إذا خلعوا نعالهم بالباب، واستقربهم الجلوس على وسائده، جمع المعطرى (جحا صنعاء) أحذية أصحابه، وأسرع بها إلى السوق، فباعها، واشترى بثمنها طعاما لأصحابه.

ثم يطيلون الحديث والبحث عن أحذيتهم على غير طائل، ويقبلون عليه يسألونه عنها، فيجيبهم ساخرا:

أحذيتكم فى بطونكم!

وهذا (أرتين) «جحا الأرمن»، يرى أحد البخلاء، مشرفا على الغرق، ويسمع أصحابه ينادونه: هات يدك.

فيقول لهم (أرتين) ساخرا:

لاتقولوا له هات، فإنه ينفر منها، بل قولوا له: خذ أيدينا، اذا كنتم جادين فى إنقاذه!

فإذا تركنا باب السخرية إلى مايشاع عن (جحا) فى بلاد العالم، من ضروب الغفلة، وجدنا طرائف لاتحصى. فهذا (بات) جحا أرلندة، يبعث إلى صاحبته بالكتاب التالى:

أرسل إليك هذه الرسالة ـ ياعزيزتى ـ وأنا غير آمن على وصولها إليك، لأننى سيئ الظن بالبريد هذه الأيام. فإذا لم تصل، فلا تتوانى عن الافضاء إلى بذلك، لأبعث إليك برسالة أخرى!

وأحب أن أنبهك إلى أن القلم الذى أكتب به الآن من نوع ردئ. فإذا عثرت على خطأ فى رسالتى فعلى هذا القلم الملعون وحده تبعة ماتجدين من غلط!

وهذا (جورج) جحا لندن، يقسم ليكفن عن الخمر، فلا ينقضى على عهده ثلاثة أيام حتى ينازعه الحنين اليها فى اليوم الرابع، فإذا بلغ الحان، عرج عليه قائلا:

هنيئا لك ياجورج، عزيمتك الصادقة. لقد وفيت بعهدك أربعة أيام، ولابد من مكافأتك على ذلك بكأس من الخمر.

فإذا جرع الكأس الأولى قال:

هذه مكافأة اليوم الأول. والثانية مكافأة اليوم الثانى!

ثم أسلمته الرابعة إلى العشرين!

لمحة تاريخية:

وقد ولد (جحا العربى) أبو الغصن دجين بن ثابت بالكوفة، وعاصر الباطش الجرئ: «أبا مسلم الخراسانى». وقد نمى خبره إليه، فاستدعاه واستظرفه، ودخلت عليه حيلته، فحسبه أبله أو مخبولا، وماهو فى الحقيقة بأبله أو مخبول، ولكنه ساحر بارع يلعب بالعقول.

وقد سجل (أبو الغصن) هذا اللقاء فى ذكرياته التى حفظها لنا ابن أخيه طارق بن بهل، قال:

لقد نمت بعض أخبارى إلى أبى مسلم الخراسانى القائد الجبار الذى هزم الدولة الأموية، وزلزل كيانها، وأقام الدولة العباسية، وثبت دعائمها مكانها وشيد بنيانها، فامتلأت نفسى منه رعبا وفزعا أول الأمر ثم جريت على مألوف عادتى فى الاستهانة بما لا حيلة لى فى دفعه من الأخطار، ومقابلته بالابتسام.

لم أكن أعلم لاستدعائه سببا، فلما بلغت مكانه علمت أن صديقى (يقطين) قد سمع (أبا مسلم) يذكرنى بالخير فى أحد مجالسه، ويتنادر بما أذاعه بعض الاغنياء عنى من ضروب الغفلة.

فلم يكد يتبين شوقه إلى لقائى، حتى أفضى إليه بمكانى، فأمر أبو مسلم باستدعائى إليه، فاعتصمت بالحذر، وتظاهرت بالبله.

ولم أكد أرى صاحبى (يقطين) مع أبى مسلم، وليس معهما ثالث، حتى التفت إليه متبالها، وسألته متغابيا: أيكما أبو مسلم يا (يقطين)؟

فانخدع فى أمرى أبو مسلم على وفرة ذكائه وفطنته، واستغرق فى الضحك من بلاهتى.

وهكذا ضمنت الفوز فى البعد عنه، والنجاة من صحبته.

وقد ذاع صيت (أبى الغصن) ونبه ذكره فى أوائل القرن الثانى من الهجرة. وأعجب الناس بما سمعوا به من طرائفه وملحه، ثم دفعهم اعجابهم به إلى أن خلعوا لقبه على كل دعابة مستملحة، ثم أضافوا إليه، على مر الزمن، جمهرة كبيرة من طرائف غيره من المبدعين، فاختلطت بفكاهاته، وتعذر التمييز بين الأصل والتقليد.

ولم يلبث (جحا) أن أصبح علما على فن من فنون الفكاهة الشعبية، بعد أن كان علما على شخص بعينه من أفذاذ الناس.

ثم ظهر الأستاذ (نصر الدين) التركى فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى).

وقد ولد فى أحد بلاد الأناضول، وكانت (سيوى حيصار) مسقط رأسه.

وقد عاصر (تيمور لنك)، وذاع صيته، وراجت فكاهاته، وحول الناس لقبه من (خوجة) إلى (جحا)، لتقارب الاسمين، وتشابه الشخصين.

ومهما نغفل من الشخوص الجحوية، وما أكثرها فى بلاد العالم فإننا لانغفل (تل) جحا الألمانى، الملقب (بمرآة البومة) وهو معاصر لجحا التركى، ويكاد يكون نسخة مكررة له، إن لم يكن هو.

وقد ولد (جحا) الألمانى فى مدينة (كنيت لينجن). ومات عام ١٣٥٠ م وقد أطلق عليه لقب: مرآة البومة، لأن البومة ـ على الرغم من إجماع الناس على استنكار صورتها ـ لاترى فى المرآة الا وجها طبيعيا لايعاب.

والطرائف المنسوبة إلى (جحا) فى أى بلد من بلاد العالم تمثل، أكثر ماتمثل، ألوانا من آراء منتحليها، وروح الدعابة الأصيلة فى نفوسهم.

لم يسلم جحا من اتهامه بالغفلة حينا، والبله أحيانا. ولقد افتن الناس في نسبة الكثير من الأقاصيص التى تصوره غافل معتوه، وينطبق عليه ذلك الوصف الكاريكاتيرى البارع، الذى رسم به الجاحظ أعجب نموذج للذاهل الحالم، وألصقه بكيان النحوى، ثم جاء من بعده، فألصقوه بفيلسوفنا العربى الحالم، وتمثلوه كما تمثل الجاحظ «كيان»: يسمع غير مايقال، ويكتب غير مايسمع، ويقرأ غير مايكتب، ويفهم غير مايقرأ. وقد نظم بعضهم هذا المعنى، فقال:

تقول له:زيد، فيكتب، خالدا ويقرؤه، عمرا، ويفهمه، بكرا!

وهى غفلة، يكاد يتسم بها كل مفكر عميق، اذا حصر ذهنه فى فكرة بعينها، وليس مثل «نيوتن» ببعيد عن الاذهان، حين ألقى بساعته فى ماء يغلى، وأمسك بالبيضة، وهو يحسبها ساعته، ليرقب نضجها وشيها!

ولعل هذا المثل يفسر لنا كيف حمل الناس كثيرا من الطرائف والدعابات الجحوية على غير محملها، وفهموها على غير وجهها.

ومهما يكن من أمر، فقد كان (أبو الغصن ـ جحا) يؤثر التباله والتغافل وتنطوى فى أعماقه نفس صافية راضية

مبتهجة. وكان أسلوبه الرائع يفيض من اشراقه ومرحه، على حقائق الحياة المرة، فيكسوها من ألوانه الزاهية جدة واشراقا.

أما (تل) جحا الألمانى، فقد ميزه بعض الباحثين بقسط موفور من الغفلة، كما حلا لغيره أن يعزو إليه قليلا من الخبث واستدل بعضهم على ضيق ذهنه وموفور غفلته بما يؤثر عنه من المغالاة فى تطبيق مايسمع حرفيا، والوقوف عند مدلول للفظ الحرفى غير معنى بما تنطوى عليه فى أثنائها من دلالات حقيقية كانت أم مجازية. وافتن المتخيلون فى نسبة كثير من المفارقات فى هذا الباب، تمثل أكثر ماتمثل، ألوانا من آراء متخيليها وروح الدعابة الأصيلة فى نفوسهم؟

ولكن أى الشخوص الجحوية سلم من أمثال هذه الغمزات؟

ومن أبرع ماقرأناه فى الدفاع عن بلاهة جحا، قول ناقد ألمانى:

«إن جحا كان فلاحا ذكيا، مستقيم الفطرة. وإنه لم يلجأ إلى التشبث بحرفية مايلقى إليه من حديث الا رغبة فى السخرية من غرور سكان المدن المتحضرين الذين لايستطيعون اخفاء مايضمرون من احتقار لأمثاله من الفلاحين «حين ذاك»، ويستدلون على ذلك ـ فيما يستدلون ـ بالقصة التالية:

سأله سائل: ترى بعد كم من الزمن أبلغ المدينة؟

فحسبه لم يسمع، فأعاد عليه السؤال بصوت. مرتفع فأجابه الاجابة الأولى نفسها فغضب الرجل وحسبه يهزأ به، فصرخ فيه أجب عن سؤالى أيها الغبى.

فقال له: سر فى طريقك!

فتركه الرجل ومشى فى طريقه ثائرا يكيل له اللعنات. ولم يكد يبتعد عنه قليلا حتى صاح فيه أن يتمهل، ليلقى إليه بكلمة!

فوقف الرجل متعجبا من غرابة أطواره: وسأله:

ماذا تريد؟

فقال له فى هدوء الفيلسوف:

إذا سرت على هذا النهج بلغت المدينة بعد ساعتين!

فأدرك الرجل أن جحا كان على صواب، فلم يكن فى وسعه أن يعرف مدى الزمن الذى يستغرقه حتى يبلغ المدينة، قبل أن يتعرف من مشيته مدى اتساع خطواته!

صديقي جحا، كما عرفته وأحببته:

تفاؤل دائما:

هذه خلاصة الفلسفة الجحوية. وهى فلسفة تخلق العجائب فى كل شئ.

ولقد كانت هذه الفلسفة هى السياسة العليا، لدولة انتصرت فى الحرب الماضية، ومازالت هى فلسفتها إلى اليوم. ولقد عشت مع جحا وخالطته زمنا طويلا. ومازلت أخالطه. وعرفنى وعرفته. فتعلمت على يديه أجل الدروس، وما لم أتعلمه على يد غيره.

وجحا لايعرف البكاء، فهو يرى البكاء نوعا من الضعف يسلم الانسان إلى الهموم والاحزان، ويرى أن التفاؤل كفيل بإيصال الإنسان إلى غاياته وأهدافه وحسبكم من جحا أنه يرى أن الدنيا لاتستحق منا هذا العناء من التشاؤم والطيرة ومحالفة الهموم، بل تحتاج منا إلى أن ننظر اليها دائما متفائلين.

دولية جحا:

وجحا شخصية دولية، وعنصر هام فى كل دولة من الدول، شرقية كانت أو غربية. وتكفى دولية جحا، للتدليل على أهمية شخصية.

فبينما نجد «جحا العرب» يتمثل فى شخصية أبى الغصن، نجد «جحا تركيا» يتمثل فى شخصية «نصر الدين خوجة» على حين نجد فى فرنسا من الشخوص الجحوية دى كراك، ودى لاباس، وميشيل موران.

ونجد فى مرسيليا وحدها، بوتاس، وكالينو، وماريوس.

ونجد فى باريس، دوق دى سان سيمون، ونجد أرتين فى بلاد الأرمن، وكميل سيمون فى لندن، وسن يات فى ايرلنده، واندولوس فى اسكتلندة، ودافيد فى جنوب غربى انجلترا، وسان جورج فى انجلترا نفسها.

ومن الشخوص الجحوية الشرقية الظريفة، طلحة الفارس، والشيخ تشللى الهندى وخوش خال خان الافغانى.

وفى صنعاء وحدها، على بن زايد، وحميد بن منصور، وأحمد المعطرى.

نصوص الأدب:

ويمكننى أن أصارحكم بأن معظم الروايات التى تستند إلى الشخوص الجحوية الأجنبية إنما هى فى الواقع مسروقة من تراث أدبنا العربى، وهذا هو رأيى دون تعصب.

ويمكننى أن أصرح مستشهدا على صدق رأيى هذا بما قرأناه فى إحدى الصحف الاسبوعية المعروفة من أن «جحا انجلترا» الحديث (برنارد شو) سئل عن حالة فقال ماخلاصته:

لم يجد «برناردشو» من يتحدث إليه غير برناردشو!

وهذه سرقة واضحة ظاهرة، فقد سئل جحا العربى ذات مرة: لماذا اعتكف عن الناس؟ فقال:

بحثت فيهم عمن هو أذكى من جحا فلم أجد الا جحا نفسه. فجلست إليه ليحل لى مشاكلى!

سرقة شرقية:

على أن سرقة أفكار جحا العربى لم تكن مقصورة على جحا الغرب، بل سرقها كذلك نصر الدين خوجة التركى، واستولى عليها ظلما وعدوانا:

فقد أعلنت احدى المجلات التركية عن مسابقة، يفوز فيها بجائزة، كل من يقوم بتأليف رواية عن نصر الدين خوجة ويذكر كل قصة وردت عنه.

فكان القراء أذكى من ناشر الاعلان، فقد سرقوا كثيرا من قصص أبى الغصن، وأسندوها إلى جحا التركى!

الحوادث الجحوية كثيرة:

والحوادث الجحوية أكثر من أن تحصر، ويكفى أن نطوف بكم قليلا، لنقطف لكم بضع زهرات مشرقة من هذه البساتين الرائعة المثمرة، وننبه إلى أنه أضيفت إلى هذه الحوادث بعض فكاهات الحمقى والمغفلين والطفيليين، من أمثال:هبنقة، وفند، وطفيل، وأضرابهم. ونسوق هذه الأمثلة اللطيفة عن فلسفة جحا.

فى عيادة طبيب:

شكت زوجة جحا إليه ألما فى بطنها، وأمرته أن يستدعى لها الطبيب فلما خرج من باب المنزل أشرفت عليه من الدور الثانى، ونادته، وأفهمته أنها شفيت، ولا داعى للطبيب!

ولكنه فى ذهوله، والفلاسفة حالمون، توجه إلى عيادة الطبيب، ولم يتذكر شفاء زوجته، إلا بعد أن وقف بين يدى الطبيب، فسأله: لماذا حضرت ياجحا؟ فأجابه على الفور: لقد شكت زوجتى ألما فى بطنها، وأمرتنى أن أستدعيك، فلما خرجت من باب المنزل أطلت على وأخبرتنى أن لاداعى لحضورك، فقد شفيت!

وقد حضرت إليك الآن لأخبرك بهذا حتى لاتكلف نفسك مشقة الحضور الينا!

ذكاء جحا:

وطوف ذات مرة فى الصحراء، فصادف رجلا بشع الهيئة، أمسك به، وأراه جثث موتى على قمة الجبل، ورءوسهم مفصولة عن أجسامهم فسأله جحا: ماهذا:

فقال الرجل: هؤلاء كل واحد منهم طلبت منه أن يجيبنى عن أربعين سؤالا بجواب واحد لايتغير، فعجزوا جميعا، فقتلتهم! فهل عندك الجواب، أو تقتل معهم؟

فقال جحا: عندى هذا الجواب، وسل ما بدا لك.

فظل يسأله السؤال تلو السؤال، وجحا يجيب بإجابة واحدة حتى أنهى الأربعين سؤالا، ولم تكن إجابة جحا إلا كلمة هى (لا أدرى)، فأخلى سبيله!

كلمة واحدة:

وسئل جحا ذات مرة: كم عمرك الآن؟ فقال: أربعون عاما، فقيل له: إنك قلت لنا هذا من سبع سنوات مضت. فأجاب على الفور: وهل يغير الحر كلامه؟

يوقف الزمن:

وسئل مرة، كم سنة بينك وبين أخيك؟ فقال سنة واحدة. فإذا مضى هذا العام تساوينا فى السن عند استقبال العام الجديد!

المذهب الجحوى:

والمذهب الجحوى ـ كما قدمت ـ مذهب سافر فلسفى فى الوقت نفسه، وليس أدل على ذلك من (تل أويلن أشبييل) الذى كان يحمل فى يده بومة، وفى الأخرى مرآة، واشتهر بهذا.

ولهذا تحليل غريب كما أراه، فهو يشير إلى أن البومة هى المخلوق الذى يجمع على التشاؤم منه العالم البشرى كله. فإذا

نظرت هذه البومة فى المرآة، فلا تجد صورتها إلا مخلوقا طبيعيا عاديا، بل قد ترى فى صورتها حسنا وجمالا تدل به على خلق أوفى!

حاجتنا إلى فلسفة جحا:

على أننى أنصح لكل عربى أن يتأسى بفلسفة جحا، ذلك بأنها السبيل الوحيد الذى سيهزم أمامنا الصعاب، ويزيل العقبات. فإذا وجدت هذه النصيحة آذانا مصغية، فستكون خير هدية أقدمها لصديقى جحا، كما عرفته وأحببته.

فن الكتابة:

ليست الصعوبة، التى تعترض الكاتب أو الشاعر، فى أن يكتب أو ينظم فى أى موضوع شاء، بل الصعوبة كلها فى أن يقول مايعنيه بالضبط فى هذا الموضوع.

هكذا يقول بعض كتاب الإنجليز وأساطين مدرسى الانشاء. وقد استشهدنا بهذا القول فى مقدمة ديوان ابن الرومى، حين عرضنا للكلام على دقته التى امتاز بها فى شعره، كما استشهدنا بقول الشاعر العربى:

وفضلنى فى القول والشعر أننى ... أقول على علم، وأعلم ما أعنى

وهذه هى الغاية الجليلة التى يجب أن يفوق إليها رام سهامه، ويجعلها نصب عينيه. وهى الغاية التى نريد أن نبين الطريق المؤدية إليها، تاركين الكلام إلى أساتيذ التربية وكبار المنشئين الذين قضوا حياتهم فى تدريس هذا الفن الجميل، ملخصين آراءهم حينا، ومقتبسين بعض عباراتهم حينا آخر رغبة فى الاختصار الذى تحتمه علينا هذه المقالات الموجزة.

والى القارئ خلاصة هذه الآراء:

أول مانرمى إليه بتأليف هذا الكتاب هو أن نرسم لطالب الانشاء خطة واضحة، ونبين له منهاجا يترسم خطاه، ليصل إلى غايته رأسا، دون أن يضيع وقته عبثا فى تمرينات متشعبة وغير مجدية. فضلا عن كونها حجر عثرة فى طريقه، وحائلا دون كتابته الصحيحة الرشيدة المنشودة.

والواجب أن نعمل على أن نثبت أقدامهم، ونمكنهم من الكتابة التى تجمع بين الرشاقة والقوة، وتكون - إلى ذلك - خالصة من الشوائب، دقيقة التعبير، حسنة الأداء.

وللوصول إلى هذه، سلوك طريق عملية واحدة، هى الاكثار من التمارين الإنشائية إلى حد قد يظنه البعض غير ضرورى، أو يرى فيه اسرافا لا داعى إليه، اسرافا فى الجهود، واسرافا فى

الزمن، ولكن سلوك هذه الطريقة الطويلة ضرورى لا مناص منه. وليس طول الطريق دليلا على أن الطريق الأخرى التى هى أقصر منها خير منها.

ألا ترى إلى طالب العود أو البيان (البيانو)؟

قل لى بربك: كم عاما أمضى فى سبيل غايته؟

وكم من الزمن مر عليه حتى وصل إلى درجة الاتقان أو- على الاصح- حتى دنا من درجة الاتقان؟

وإذا كان ذلك على هذا النحو فما بالك بمن يتطلع إلى إتقان الكتابة والتصرف فى فنون القول؟

ما بالك بمن تطمح نفسه إلى مثل هذا المطلب الوعر؟

وكم من السنين، يجدر به أن يقضيها، حتى يصل إلى غايته؟ «ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر».

ما بالك بمن يريد أن يمتلك ناصية البيان، ويسمو بأسلوبه عن الركاكة واللبس والتعقيد، وما إلى ذلك من عيوب الكتابة وصعاب اللغة، ويجمع إلى ذلك ذوقا فنيا عاليا؟

أضف إلى ذلك أن من يريد أن يتعلم فن الانشاء، إنما هو- على الحقيقة يريد أن يتعلم كيف يفكر؟ فهو فى بحثه عن

الكلمة الصحيحة الفصيحة، وتخيره الأسلوب الدقيق الأداء، الموفق التعبير - يسلك كثيرا من شعاب القول وفنونه، ويمر بمنعرجاته ومنعطفاته الكثيرة، باحثا منقبا عن الفكرة المنشودة، متخيرا من بينها أمثل طريق.

وهو بهذا يتعلم كيف يتعرف الخطأ والصواب، ويميز بين الحسن والأحسن. وكلما سار فى هذه الطريق تفتحت أمامه كنوز اللغة وفرائد المعانى، وكان مثله كمثل (سول)، ذلك الفتى الذى تحدثنا الاساطير، أنه ذهب يبحث عن جحوش أبيه وعيرانه فظفر بملك عظيم!

تمارين الانشاء:

أما تمارين الانشاء فيجب أن تكون قصيرة فى أكثر الأحيان وأنا ألحف فى الرجاء، أن يعنى حضرات المدرسين بهذا الأمر كل العناية، وأن يتجنبوا غالبا المقالات الطويلة، فهى منهكة لقواهم، مضيعة لوقت المدرسين بلا طائل. وهى، إلى ذلك، تعود الطلبة أن يجمحوا كثيرا، وربما عن جوهر الموضوع، كما يحدث ذلك أحيانا، ويبعدوا عن أسسه. وشر عيوب الكتابة الشطط.

أضف إلى ذلك أن التطويل يعود الطالب الاهمال فى صوغ عباراته بدقة، كما يعوده الاهمال فى تخير الالفاظ، فلا ترى

له إلا كتابة مفككة الأوصال، ركيكة التعبير. على حين أنه لو كتب موضوعا قصيرا، أحسن تنسيقه، وعنى بأدائه خير أداء.. لكان ذلك أجدى عليه، وأعود بالفائدة من كتابة موضوع مسهب، فى عدة صفحات، قد رصفت فيه الكلمات رصفا، بلا روية ولا إحكام.

ويجدر بالمدرس أن يرشد الطالب إلى الطريق التى يسلكها، ثم يدع له وحدة تخير الجمل وصقل الاسلوب.

أما الطالب، فهو خليق أن يتخير من الموضوعات والمعانى مايلائم تفكيره ويتناسب مع ميوله ومداركه، حتى يجيد أداءه.

ويجدر بالمدرس أن يصحح التمارين الانشائية فى الفصل، أمام التلاميذ كلما كان ذلك ممكنا. فإن ذلك أعون على توسيع مدارك الطالب وتنمية عقله. ثم ليقرأ الطالب موضوعه بصوت عال، وتبدأ المناقشة بين المدرس والطلبة فى نقط الموضوع، وتبين وجهات الخطأ والصواب فيه. فتتاح للطلبة فرصة الانتقاد والأخذ والرد والمناقشة. ويمتلئ الدرس حياة ونشاطا. ويتعود الطلبة الكلام والمحاجة منذ حداثتهم.

حي بن يقظان[1]

نشأة المؤلف:

مؤلف هذه القصة الخالدة، هو أبو بكر محمد بن عبد الملك ابن محمد بن طفيل الاندلسي. وهو ينتسب إلى قرطبة، وأشبيلية... ويدعى تارة بالقرطبي، وتارة بالأشبيلي. ويعزى إلى قبيلة قيس المشهورة.

وكانت ولادته في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي. وقد اشتغل بالطب في غرناطة، ثم أصبح قاموس هذه المقاطعة. ومالبث أن ذاع صيته في الآفاق، وعرف فضله بين أفذاذ معاصريه، وأصبح علما من الاعلام، بعد أن اتصل بأبي يعقوب، عام ٥٤٩ هـ (١١٥٤م). وصار أصفى أصفيائه، وأخلص سماره وندمائه.

---

(١) طالع هذه القصة في مجموعة (قصص عربية) التي أخرجها الاستاذ (كامل كيلاني).

أبو يعقوب وثقافته:

أما أبو يعقوب هذا، فهو يوسف بن عبد المؤمن، وقد أسس أبوه دولة الموحدين، ثم خلفه ولده أبو يعقوب على (سبتة، وطنجة). واتخذ ابن طفيل كاتم سره وأنيسه وطبيبه ولم يخالف له رأيا، ولم يرد له مشورة.

وكان أبو يعقوب هذا مثال الوالى المثقف الناضج، وقد اختار حاشيته وأصفياءه من أعيان المفكرين فى عصره.

قال المراكشى يصف أبا يعقوب:

(وكان أبيض، تعلوه حمرة، شديد سواد الشعر، مستدير الوجه، أفوه، أعين، إلى الطول أقرب، فى صوته جهارة، رقيق حواشى اللسان، حلو الالفاظ، حسن الحديث، طيب المجالسة، أعرف الناس بالطريقة التى تكلم بها العرب، وأحفظهم بأيامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والاسلام.

وصرف عنايته إلى ذلك.. أيام ولايته على أشبيلية فى حياة أبيه. ولقى رجالا من علماء اللغة والنحو والقرآن.

وكان أبو يعقوب ـ كما يقول المراكشى ـ شديد (الملوكية)، بعيد الهمة، سخيا جوادا، استغنى الناس فى أيامه، وكثرت فى أيديهم الاموال هذا مع ايثار للعلم وتعطش إليه مفرط.

ثم قال: (وكانت له مشاركة فى علم الادب، واتساع فى حفظه اللغة، وتبحر فى علم النحو. ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة. فأمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب «مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الاموى.)

إلى أن قال: (ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الاندلس والمغرب ويبحث عن العلماء ـ وخاصة أهل علم النظر ـ إلى أن اجتمع له مالم يجتمع لملك قبله، ممن ملك المغرب).

فضل ابن طفيل:

قال المراكشى:

(وكان ممن صحبه من العلماء، أبو بكر محمد بن طفيل، أحد فلاسفة المسلمين. كان متحققا بجميع أجزاء الفلسفة. قرأ على جماعة من المتحققين بعلم الفلسفة ورأيت لأبى بكر هذا تصانيف فى أنواع الفلسفة من الطبيعيات والالهيات وغير ذلك.

فمن رسالة الطبيعة رسالة سماها، رسالة حى بن يقظان، غرضه فيها بيان مبدأ النوع الإنسانى على النحو الذى يراه. وهى رسالة لطيفة الجرم، كبيرة الفائدة فى ذلك الفن. ومن تصانيفه فى الآلهيات رسالة فى النفس رأيتها بخطه رحمه الله. وكان قد صرف عنايته فى آخر عمره إلى العلم الإلهى.

ونبذ ماسواه. وكان حريصا على الجمع بين الحكمة والشريعة، معظما لأمر النبوات ظاهرا وباطنا. هذا مع اتساع فى العلوم الإسلامية.

وكان أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له: بلغنى أنه كان يقيم فى القصر عنده أياما ليلا ونهارا، ولا يظهر، وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر.

مثال من شعره:

وقد اختار المراكشى من شعر ابن طفيل قوله فى الزهد:

يا باكيا فرقة الأحباب عن شحط
هلا بكيت فراق الروح للبدن

نور تردد فى طين إلى أجل
فانحاز علوا، وخلى الطين للكفن

يا شد ما افترقا من بعد ما اعتنقا
أظنها هدنة كانت علي دخن

ان لم يكن فى رضا الله اجتماعهما
فيالها صفقة تمت علي غبن

ابن طفيل وابن رشد:

وكان لابن طفل الفضل فى تقديم ابن رشد إلى السلطان أبى يعقوب. وقد وصف ذلك المراكشى، فقال:

ولم يزل أبو بكر هذا يجلب العلماء من جميع الأقطار، وينبه عليهم، ويحضه على اكرامهم والتنويه بهم، وهو الذى نبه على ابن الوليد محمد أحمد بن محمد بن رشد، فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم.

وكان أبو الوليد يقول غير مرة: لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب وجدته هو و «أبو بكر بن طفيل» ليس معهما غيرهما فأخذ أبو بكر يثنى على، ويذكر بيتى وسلفي. ويضم بفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدرى. فكان أول ما فاتحنى به أمير المؤمنين - بعد أن سألنى عن اسمى واسم أبى ونسبى - أن سألنى عن رأى الفلاسفة فى احدى المسائل التى اختلفوا فيها، فأدركنى الحياء والخوف فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالى بعلم الفلسفة ولم أكن أدرى ما قرر معه ابن طفيل، ففهم أمير المؤمنين منى الروع والحياء. فالتفت إلى ابن طفيل، وجعل يتكلم على المسألة التى سألنى عنها، ويذكر ما قاله أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة. فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها فى أحد من المشتغلين بهذا الشأن، من المتفرغين له، ولم يزل يبسطنى حتى تكلمت. فعرف ما عندى من ذلك. فما انصرفت حتى أمر لى بمال وخلعة سنية ومركب.

وأخبرنى تلميذه المتقدم الذكر عنه قال: استدعانى أبو بكر ابن طفيل يوما. فقال لى: سمعت اليوم أمير المومنين يتشكى من قلق عبارة أرسطوطاليس، أو عبارة المترجمين عنه. ويذكر غموض أغراضه، ويقول:

لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها، بعد أن يفهمها فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس. فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل. وإنى لأرجو أن تفى به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك، وقوة نزوعك إلى الصناعة. ومايمنعنى من ذلك إلا ماتعلمه من كبرسنى واشتغالى بالخدمة، وصرف عنايتى إلى ماهو أهم عندى منه.

قال أبو الوليد: فكان هذا الذى حملنى على تلخيص مالخصته من كتاب الحكيم أرسطوطاليس.

وقد رأيت لأبى الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم فى جزء واحد، فى نحو مائة وخمسين ورقة. وله ترجمة بكتاب الجوامع.

وقد لخص فيه كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان، وكتاب السماء، والعالم، ورسالة الكون، والفساد، وكتاب الآثار العلوية، وكتاب الحس والمحسوس.

ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها فى كتاب مبسوط، وهو أربعة أجزاء.

وجملة القول إنه لم يكن فى بنى عبد المؤمن - من تقدم منهم وتأخر - ملك بالحقيقة غير أبى يعقوب هذا.

مكتبة أبى يعقوب:

رأى القارئ مما أثبتناه ماينبئه عن شغف أبى يعقوب بأفاضل العلماء، وأفذاذ المفكرين، أمثال: ابن طفيل، وابن رشد، كما رأى هذا السلطان المثقف فى تنشيط الحركة العلمية، وبعث الآراء الفلسفية ونحب أن نقتبس مثلا آخر مما رواه المراكشى فى كتابه: (المعجب فى تلخيص أخبار المغرب) ليتبين منه مقدار ولوع هذا السلطان باقتناء نفائس الكتب، وشغفه بجمعها، وتحايله على ذلك، حتى اجتمع له منها شئ كثير فهو - كما يقول المراكشى - لم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء - وخاصة أهل علم النظر - إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله، من المغرب.

والى القارئ مايقوله (المرانى). وكان يملك مكتبة حافلة بروائع الكتب، كما أثبته المراكشى فى كتابه - قال المرانى:

(انتهى خبر هذه الكتب إلى أمير المؤمنين (أبى يعقوب) فأرسل إلى دارى، وأنا فى الديوان - لا علم عندى بذلك - وكان الذى أرسله (كافور الخصى) مع جماعة من العبيد الخاصة. وأمره ألا يروع أحدا من أهل الدار، والا يأخذ سوى الكتب، وتوعده - ومن معه - ان نقص أهل البيت ابرة فما فوقها.

فأخبرت بذلك - وأنا فى الديوان - فظننته يريد استصفاء أموالى فركبت - ومامعى عقلى - حتى أتيت منزلى، فإذا الخصى (كافور الحاجب) واقف على الباب - والكتب تخرج إليه - فلما رآنى وتبين ذعرى، قال لى:

- لا بأس عليك.

وأخبرنى أن أمير المؤمنين يسلم على، وأنه ذكرنى بخير، ولم يزل يبسطنى حتى زال مافى نفسى، ثم قال لى:

سل أهل بيتك: هل راعهم أحد، أو نقص شئ من متاعهم؟.

فسألتهم فقالوا:

- لم يرعنا أحد، ولم ينقصنا شئ.

وقالوا: جاء أبو المسك كافور، واستأذن علينا - ثلاث مرات - فأخلينا له الطريق، ودخل هو بنفسه - إلى خزانة الكتب، فأمر باخراجها).

فلما سمعت هذا القول منهم، زال ماكان فى نفسى من الروع.

قال المراكشى: وقد ولوه - بعد أخذهم لهذه الكتب منه - ولاية ضخمة ماكان يحدث بها نفسه:

ذلك مثل نجتزئ به، لنبين افتنان أبى يعقوب باقتناء الكتب النادرة، وعنايته بتقريب العلماء إليه، وحرصه على إنماء روح البحث، وتنشيط العلماء.

وفاة ابن طفيل:

وهكذا قضى ابن طفيل حياة مباركة، حافلة بالدرس والتأليف. ولم يأل جهده فى تشجيع أعلام عصره وتقديمهم إلى السلطان. وقد رأى القارئ أثرابن طفيل فى تشجيع ابن رشد، والاخذ بناصره. وقد دارت بينهما مراسلات نفيسه فى مراجعة كتاب الكليات، ذلك الذى ألفه (ابن رشد).

وقد جاء فى الجزء الثانى من كتاب طبقات الاطباء لابن أبى أصيبعة مايلى:

(ولابن رشد مقالة أيضا فى اتصال العقل بالإنسان: مراجعات ومباحثات بينه وبين أبى بكر بن طفيل).

ومات ابن طفيل عام ٥٨١ هـ. (١١٨٥ - ١١٨٦م) فى مراكش. واحتفل معاصروه بتشييع جنازته. ومشى فيها

السلطان. وظفر بما لم يظفر به الا القلائل، فقد قدره أهل عصره ـ كما قدرته العصور التالية ـ حق قدره.

أما مؤلفاته الأخرى، فلسنا نعرف عنها الا رسالتين فى الطب. على أن قصة (حى بن يقظان) كافية وحدها فى نباهة شأنه وخلود ذكره على مر الأزمان وتعاقب العصور.

أثر ابن طفيل فى عالم القصة:

ولو أغفلنا فلسفة ابن طفيل كلها، وبراعته الفذة فى تجلية غوامض العلم وتحليل النزعات الإنسانية، وشرح المذاهب الفكرية الدقيقة، ثم نظرنا إلى أثر قصته فى القصص العالمى.. لتملكتنا الدهشة. فإن (حى ابن يقظان) قد أرضعته ظبية ـ كما فى قصته ـ فلم يجد صاحب قصة (سيف بن ذى يزن) أمامه الا اقتباس هذه الفكرة فى مستهل تلك السيرة المعجبة، وسار على غرار ابن طفيل، فأختار لسيف بن ذى يزن ـ بطل قصته ـ ظبية ترضعه، ثم ارتقى المؤلف.. من الظبية.. إلى جنيه، تعطف عليه، فترضعه، فيكسب من لبنها شجاعة الجن وقوتهم.

وقد أوحت هذه الفكرة إلى مؤلف (طرزان) أن يختار لبطل قصته قردة، يترعرع وينشأ بينها، ويحاكى أفعالها.

فلما جاء (دانيل ديفو) القاص الإنجليزى المشهور اقتفى أثر ابن طفيل، وسار على منهاجه فى تأليف (روبنسن كروزو)

الذى عاش وحده فى جزيرة نائية مقفرة، ولم يفته أن يختار لبطل قصته رفيقا يسعده فى آخر مقامه فى الجزيرة، وهو (جمعة). كما اختار ابن طفيل (أسأل) رفيق ابن يقظان، الذى التقى به فى المرحلة الأخيرة من القصة.

وقد قرأنا مايعزز رأينا هذا فى المقدمة الرائعة التى صدر بها (ليون جوتيه) طبعته الأنيقة لقصة (حى بن يقظان) اذ يقول:

وإن قارئ هذه القصة (حى بن يقظان) ليرى فيها روح ألف ليلة وليلة، حيث اتخذت أسلوبا فلسفيا صوفيا عاليا فى كثير من المواقف المعجبة كما يرى فيها - بالإضافة إلى ذلك - أصل (روبنسن كروزو) التى كتبت على غرارها، ولم يفت مؤلفها أن يقتبس شخصية (جمعة).

ولا بأس أن نقتبس كلمة موجزة من تلك المقدمة النفيسة، لنطلع القارئ على رأى أوربى ناضج فى خطر هذه القصة العربية الفذة، قال (جوتييه):

(إنّ القارئ ليدهش، إذ يرى تعاليم أرسطو مبثوثة فى أثناء هذه القصة، وقد امتزجت بألوان بارعة من الصوفية العالية، والآراء الفلكية والجغرافية والفلسفية، فى أسلوب عصرى حقيق بالاكبار.

وقد أبدع المؤلف فى أمثلته التى عرض بها إلى دقائق التشريح، وتحليل التربة والمناخ، واكتناه أصول الدين والنظم الاجتماعية، والرموز البارعة التى عبر بها عن دقائق فى فن مؤلفها، وبراعة أسلوبه الجامع، وابداعه فى تجلية غوامض الفلسفة وتدرجها ونمائها واتجاهاتها، وجمع أطرافها، ولم أشتاتها المبعثرة، فى نسق علمى أخاذ، يتجلى للقارئ فى ذلك القصص الطبيعى الجذاب.

اثر قصة روبنسن كروزو:

على أن قصة (روبنسن)، تلك التى وضعها مؤلفها على غرار قصة ابن يقظان، قد أوحت إلى كثير من القصاصين أن يحاكوها، ويسيروا على نهجها. فلنجتزئ منها مايلى:

(وفى عام ١٧١٩م.. شرع (ديفو) فى تأليف القسم الأول من (روبنسن كروزو) وكان حينئذ قد قارب الستين من عمره.

وسار على نهجه كثير من الكتاب، ولم ينجح - من بينهم - غير كتاب (روبنسن سويسرا) أو الأسرة السويسرية، ذلك الذى ألفه (رودولف نيس) أستاذ الفلسفة فى جامعة برن، وقد اختار لقصته أسرة، عددها ستة أشخاص، ينجون من الغرق، فتتألف منهم أسرة سعيدة متعاونة،.. يسودها الوئام والحب.. فتتغلب على العقبات والمتاعب).

ابن يقظان وجلفر:

ولو شئنا أن نتقصى أثر القصة العربية، التى أبدعها ابن طفيل فى روائع القصاصين لامتد بنا نفس القول، واحتجنا إلى رسالة مستفيضة.

فنجتزئ بالإشارة السريعة إلى أثر قصاصنا (ابن طفيل) فى الكاتب العبقرى (سويفت)، مؤلف جلفر، وقد أظهرها مؤلفها عام ١٧٢٦م. فى مدينة لندن. فأحدثت دويا هائلا وآثارا بعيدة المدى:

إن القارئ الباحث ليدهشه مايراه فى قصة جلفر من وجوه الشبه حتى ليجزم بأن (سويفت) كان يسبح فى كثير من الأجواء التى سبح فيها ابن طفيل. فإذا نظرنا إلى تلك المحادثات المستفيضة التى دارت بين جلفر وبين العمالقة - فى الجزء الثانى - وبين جلفر والجياد الناطقة فى الجزء الرابع - وهى محاورات تدل على سخط صاحبها على الجنس الإنسانى ونقمته من ضلالهم وأفانين غرورهم - رأيناه تبسيطا، وشرحا لنغمة (ابن يقظان) وسخطه على ضلال الجنس الإنسانى.

وإذا نظرنا إلى فطنة ابن طفيل إلى أهدى أسلوب فى تعليم لغة أجنبية.. الاسلوب المباشر وهو.. فيما نعلم.. أول من كشف

لنا الستار عنه - وجدنا (سويفت) يلجأ فى قصته إلى تقريز هذا الاسلوب نفسه فى تعلم جلفر لغات الاقزام، والعمالقة، وسكان الجزيرة الطيارة والجياد الناطقة.

أنظر إلى قول ابن طفيل:

(ثم سمع - ابن يقظان - صوتا حسنا وحروفا منظمة لم يعهد مثلها من شئ (من أصناف الحيوان).

وانظر إلى قول سويفت على لسان جلفر:

(ثم دار بين الجوادين حوار طويل، هو أقرب إلى أن يكون حوار فيلسوفين، يريدان أن يتعرفا ظاهرة غريبة، لاعهد لهما برؤيتها من قبل).

وانظر إلى دهشة جلفر من لغة الأقزام والعمالقة وسكان الجزيرة الطيارة. فإنك واجد مايحقق هذا الرأى، ويقنعك بصدق ماذهبنا إليه.

أما مشكلة الثياب فقد ظهر فيها توخى (سويفت) نهج ابن طفيل ظهورا بينا.

فانظر إلى قول ابن طفيل:

(ونظر - ابن يقظان - إلى أشكال - أسال - وتخطيطه، فرآه

على صورته وتبين له أن المدرعة التى عليه ليست جلدا طبيعيا، وإنما هى مثل لباسه هو) .

فاتخذ (سويفت) من هذه اللفتة البارعة نواة لقصته فى بلاد العمالقة، كما استفاض فى تبسيط هذه الفكرة وتحليلها فى قصة جلفر مع الجياد الناطقة فهو يقول فى الأولى:

(وما كاد (العملاق) يرانى حتى دهش وأخذ قشة صغيرة من الأرض - فى حجم العصا التى نتوكأ عليها فى بلادنا ورفع بها أطراف ثوبى، وهو يحسبه غطاء وهبته لى الطبيعة، كما تهب الى الطيور الريش، ونفخ فى شعرى ليتبين وجهى بوضوح. ثم نادى خدمه وقال لهم فيما فهمت من دهشته وشارته:

(إنه لم ير حيوانا يشبهنى فى حقوله!)

وقد شغلت مسألة الثياب هذه أرحب مكان فى نفس (سويفت) . فلم يكتف بتقريرها فى هذا الموضع من كتابه، بل عاد إليها فى الجزء الرابع حين عرض لحوار الجوادين الناطقين، وتناولها فى هذه المرة مسهبا مستفيضا فى شرحها وتحليلها، فقال:

وتكنفنى هذان الجوادان، وأجالا أبصارهما فى، وظلا يطيلان التأمل فى وجهى ويدى زمنا يسيرا.

ودنا منى أحد الجوادين ـ وهو الأزرق المرقش ـ فرفع رجليه الأماميتين إلى قبعتى، وعبث بها، فنزعتها من فورى. ودهش الجواد الآخر، وهو الجواد الاحمر حين أمسك بذيل ثوبى، فرآه غير ملتصق بجسدى.

إلى أن قال:

وظل السادة الجياد حائرين فى أمرى، وهم يحسبون أن ثيابى ليست إلاجزءا طبيعيا من جسمى. ثم افتضح السر للسيد الجواد بعد ذلك. فقد وقع لى حادث ـ لم يكن فى حسبانى ـ اضطرنى إلى الافضاء إليه بحقيقة أمرى.

وإنى موجزه للقارئ فيما يلى:

لقد أسلفت القول: إننى كنت لاأنزع ثيابى عن جسدى كل ليلة الا بعد أن أستوثق من نوم كل من فى الدار. فإذا تم ذلك غطيت جسدى بتلك الثياب.

وظللت على ذلك شهورا عدة، ثم حدث مالم يكن فى الحسبان، فقد بعث السيد إلى ـ ذات صباح ـ بخادم الجواد الأشقر الصغير. ولما وصل الخادم إلى غرفتى دخلها من غير أن أفطن إلى حضوره ، فقد كنت مستغرقا فى النوم. وكانت الثياب قد سقطت عن جسدى ـ فى أثناء النوم ـ وكان قميصى

مرفوعا. فلم أكد أستيقظ على أثر الضجة التى أحدثها الجواد حتي بدا الارتباك والقلق على سيماه. ثم عاد إلى سيده، فقص عليه ما رآه وهو لا يكاد يبين لاختلاط الأمر عليه.

وقد رأيت أثر هذا الحادث فى نفس السيد. حين ذهبت إليه لأحييه، وأتلقى أوامره. فبدأنى بالسؤال عما سمعه من خادمه عن قصتى. وأخبرنى أن خادمه قد أدهشه منى أن يرانى فى صورتين مختلفتين أشد الاختلاف. فى يقظتى ومنامى. لأنه رأى أجزاء بيضاء من بشرة جسمي، ورأى أجزاء أخرى سمراء قاتمة.

وكنت - إلى هذه اللحظة - أخفى سرى عن ذلك السيد وغيره من الجياد، حتى لا أسلك فى زمرة الأناس الجبناء الملعونين. ولكننى اضطررت إلى الافضاء بحقيقة أخرى - وعلى الرغم منى - بعد أن افتضح السر.

ولقد كان من الطبيعى المحتوم أن تظهر الحقيقة التى حاولت اخفاءها جهدى. فقد بدأ البلى يدب إلى حذائى وثيابى من طول الاستعمال. ولم يكن لى بد من الاستعاضة عنهما بغيرهما من جلود الباهو، أو غيره من الدواب. وكان ذلك كله مؤذنا بافتضاح السر بعد زمن طويل.

وقد اضطررت - حينئذ - أن أخبر السيد أن من عادتى، وعادة أبناء جنسي - من الآدميين - أن يغطوا أجسادهم بثياب

يصنعونها من صوف بعض الدواب، بأسلوب فنى خاص، يحذقه النساج عندنا، ليستروا بها أجسادهم عن الأنظار، ويتقوا وطأة الحر والقر.

فتعاظمته الدهشة، واستولت عليه الحيرة مما سمع، لأنه لم يكن يعرف أن أحدا من المخلوقات فى حاجة إلى ارتداء اهاب صناعي غير اهابه الطبيعى الذى وهبه اللّه له.

وأردت أن أقنعه بصحة ما أقول . فرفعت شيئا من ثيابى وخلعت حذائى وجوربى. فدهش حين رأى بياض صدرى. وأمسك ثيابى بسنبكه، وظل ينعم النظر ويمعن فى الفكر فيما يراه، ثم يلمس جسدى، ويدور حولى حينا فحينا، وهو لا يكاد يصدق بصره فيما يخبره به.

وبعد افتكار طويل، التفت إلى السيد، وحمحم صاهلا فى احترام وأدب وإعجاب، «لست أشك فى أنك (ياهو) لأننى لا أدرى فرقا جوهريا بينك وبينه، فالجسمان متماثلان. والوجه والقدمان لا يختلفان إلا اختلافا يسيرا. فإن الشعر كثيف مرسل على جسد الياهو، وكذلك جسدك، لأن أغلبه لا يغطيه الشعر، وأسنانك قصيرة جدا ـ على عكس مخالب الياهو الطويلة. وأنت تمشى على قدمين اثنين على حين يمشى الياهو على أربع.

ورآنى السيد - حينئذ - أرتجف من البرد. فرثى لحالى. وأمرنى أن أرتدى ثيابى ، حتى لا يصيبنى سوء.

فشكرت له عطفه على وبره بى، ثم توسلت إليه أن يعفينى من اطلاق اسم (الياهو) على، وأظهرت له تقززى وارتياعى وسخطى على هذه الدواب الخبيثة التى تتجلى فيها الفظاظة والغلظة واللؤم.

وأقسمت عليه أن يكف عن هذه التسمية المفزعة، وأن يأمر أسرته وخدمه وأصدقاءه أن يعفونى من سماع هذا الاسم البغيض الممقوت.

ولو أن هذه القصة (قصة حى بن يقظان) قد كتب لها أن تبقى فى اللغة العربية وحدها، لعددنا ذلك من توارد الخواطر، ووقع الحافر على الحافر - كما يقولون - ولكنها ترجمت إلى أكثر لغات العالم.

فقد ترجمها (بوكوك)، وهو من رجال الكنيسة، إلى اللاتينية ثم نقلها (أشويل) إلى اللغة الانجليزية.

وقد طبعت هذه الترجمة اللاتينية، فى (اكسفورد) عام ١٧٠٠ . أما ترجمة (جيو أشويل) فقد طبعها فى السابع والعشرين من يناير عام ١٦٨٦ فى لندن.

وقد طبعت رسالة (حى بن يقظان) بالقاهرة والقسطنطينية عام ١٢٥٥هـ.

ثم طبعها (ليون جوتييه) بالجزائر عام ١٩٠٠، . كما طبعت فى سرقسطة فى هذا العام نفسه.

وترجمها إلى الانجليزية ـ عن أشويل ـ كاتب يسمى (سيون أوكلى) وطبعت فى لندن.

وترجمت إلى الهولندية عام ١٦٧٢، وأعيد طبعها فى نوتردام عام ١٧٠١م.

ونقلها عن ـ نسخة يوكوك اللاتينية ـ إلى الألمانية بريتوس، وظهرت فى فرانكفورت عام ١٧٢٦م.

ثم ظهرت ترجمات المانية أخرى عام ١٧٨٣، بأقلام كل من أيشهورون، ومونك، داوبرج. وظهرت ترجمة أسبانية بقلم «فرنسيسكوبوجى».

وقد ظهرت لها ثلاث طبعات فى مصر: احداها بمطبعة الوطن، وثانيتها بمطبعة وادى النيل، وثالثتها بالمطبعة الخيرية.

وقد ترجمت هذه القصة إلى العبرية. وكتب عن مؤلفها كاتب أسبانى «بونس براج» رسالة عنوانها: ابن طفيل ـ حياته

وآثاره - وقد طبعها عام ١٩٠٠ . ونوه بروكلمان بهذه الرسالة فى «تاريخ الآداب العربية».

وهنالك قصة فارسية عنوانها «سلامان وأسال». ألفها «جامى» الفيلسوف الفارسى، بوحى من قصة ابن طفيل، التى ترمز إلى اشتباك العقل الإنسانى بعالم المحسوسات.

وقد ترجمت القصة إلى الفرنسية، وطبعت فى باريس عام ١٩١١م

شعره العام:

عرف الناطقون (بأخوات) الضاد، الأستاذ «الكيلانى»: نصيرا للأدب العربى يكشف كنوزه المحجوبة وراء السنين، ويدأب فى هذا السبيل، دءوب المجاهد العزوم يزاحم ليله بنهاره.

فلقد أذاع فى السنين العشر الأخيرة، أدبا من أدب العربية، كان معروفا فى الناس باسمه، أورسمه. فنشره كاملا، وجلاه شاملا، وأطلع الناس منه على الزهر المنشور فى الروض المنضور.

أما المجالس الأدبية، فقد عرفت الاستاذ «الكيلانى» محدثا لبقا فما حل مجلسا إلا أفاض فيه من طبعه وفنه: صبغة أدبية

جلواء، يعينه على ذلك استذكاره - وهو القارىء للأدب العربى - لكل قارىء فى الأدب العربى من روائع وطرف فلا يتناقل أهل المجلس أحدوثة فى أدب، أو خلق، أو فكاهة، إلا مهد لها، وجال بقدحه فيها، فتذكر نظائرها وأشباهها، مناقدا هذه، مستملحا تلك، مسترسلا فى موازنة، ملؤها الدقة والوثاقة والاتزان.

والأستاذ الكيلانى نقيب الأدباء، صاحب نكتة بارعة هو فيها قوى العارضة، مرهوب الجانب، متوقد البديهة. وليست النكتة على لسانه عملا يتزلف إليه، حتى يزلف له. وإنما عنده طرف ولطائف من روح الحديث ووحيه، تجىء وفقا لكلمة يفكه لها، أو ردا على كلمة ينقم منها.

وللأستاذ (الكيلانى) شعر لم يظهر فى صحيفة، ولم يثبت فى كتاب ولكن ذاع صيته فى الاندية الأدبية سريعا، كما تذاع البشرى سريعا،فأصبح شعره حديث تلك الأندية. وأصبح المتأدبون بين راو عنه، أو آخذ منه!

على أنه كان يهرب من وصفه بالشاعرية هروب «فاعل الخير» من ذكر اسمه. ولكن الشاعرية تكمن فى شعره كمون الرى فى الماء، ؛البرء فى الدواء

واليكم هذه القطعة الرائعة، وقد جاء بها على لسان والدة جان) يطل قصة (صياد الخيال) التى ترجمها عن «جان سارمان» وهى أولى مواد كتابه (روائع من قصص الغرب) وذلك كعادته فى تدعيمه للكتب من شعره المصفى؛ والقطعة تقول:

عصف الدهر بآما ... ل محب مستهام
وأبى الشوق على عيـ ... ن محب أن تنام

***

كم تذوقت أفاويـ ... ق وصال ومدام
وتحملت من الهجـ ... ر أفانين السقام

***

سوف تخبو نار حبى ... ما لأمر من دوام
ثم أنساك، وتنسا ... نى، وينسانا الغرام
ثم لا يبقى - على الأيا ... م حب، أو خصام

فإنك لتقرأ فى هذه الأبيات القصيرة، قصة الحب من بدئها إلى نهايتها، فى أرق لفظ، وأدق وصف. وأنك لترى فيها التصوير الصادق المؤثر لآلام المحب وأشجانه، وفنون الهوى وألوانه. ثم ترى - فى ختامها - كيف تكون السلوة، والنسيان، وكيف أن الزمان فى سيره الوئيد، يحمل معه - رويدا رويدا -

كل ما انطوت عليه الصدور من عواطف الحب والبغض، ويمحو من صفحات العقول - شيئا فشيئا - صور الأحباء والخصوم.

ويلقى من حوادثه المتتابعة رمادا يطفىء النيران المشبوبة فى القلوب. فلا يلبث المحب المولع أن تخبو ناره، ويستقر على النسيان قراره، ولا يلبث المغيظ المحنق أن يشغله صديق عن خصيم، ويلهيه جديد من الحياة عن قديم.

شعره القصصى

ثم نستعرض من قطعة شعرية من تأليف الكيلانى تحكى حوارا بين «صفاء» و «أم قشعم» فحينما عرف صفاء حديث العنكبة استولت عليه الدهشة والحيرة فلم يسمع قولها حين قالت:

وقد تأكل العنكبة الجندبا ... وتهلك الزنبار والعقربا
وكم بعوض - فى حبالاتها ... راح أسيرا يبتغى مهربا
فخدرت - بالسم - أعصابه ... وأنشبت - فى جسمه - المخلبا
وقد يصيد الضفدع العنكبا ... كما تصيد البومة الأرنبا
وتأكل القطة فأرا، ولا ... تبقى على فرخ صغير، حبا
وقد ألفنا كل هذا فلم ... ندهش له، مهما بدا مغربا
لكن ما حير ألبابنا ... أن تأكل العنكبة العنكبا

فأجابته (أم قشعم):

أن تأكل العنكبة العنكبا   أو تأكل الأم ابنها الأنجبا
أو يأكل الآباء أبناءها   أو تأكل الأخت أخا أو أبا
أو تأكل الزوجات أزواجها   فليس هذا حادثا مغربا

***

أما ترى الاسماك قد شابهت   فى قتل ما تنجبه العنكبا
تلتهم الكبرى صغيراتها   ويأكل الحوت ابنه الاقربا
وأنتم الناس على رشدكم   صرتم مثالا للأذى مضربا
لم ترحموا طيرا على غصنه   رتل لحنا شائقا معجبا
ولم تغيثوا بائسا معدما   ولم تقيلوا عاثرا مذنبا
وكم أكلتم لحم أخوانكم   ميتا، ولم ترعوهم غيبا
فلا تعيبونا بأدوائكم   فقد غدا من عابنا: أعيبا!

من السيرة النبوية:

حوار (مسرحى) حول مولد الرسول عليه الصلاة والسلام.

لم يكد عبدالله ـ والد الرسول صلى الله عليه وسلم ـ يتزوج السيدة آمنة.. حتى حملت منه.

ـ ولم يلبث الموت أن اخترم حياته فى مقتبل شبابه، فى مثل عمر الورود النضرة، والأزاهير الشذية العطرة.

- مات والده قبل أن ينعم برؤية ولده العظيم، الذى أشرقت الدنيا بنوره الباهر.

- ولد الرسول بعد أن مر على وفاة أبيه عبدالله عدة أشهر، فأودع الله تعالى قلب جده عبدالمطلب حبا خالصا للرسول.

- ذلك من ألطاف الله.

- فعنى به جده، كما عنى بأبنائه.

- شد ما حزنت آمنة ليتم ولدها.

- لا عجب فى ذلك، فقد كانت آية من آيات الوفاء لزوجها.

- وكانت الصدمة قاتلة فلم ينقذها غير الصبر.

- لقد كان (عبدالله) زين الشباب فى عصره.

- كان، أعلى أمثلة الشجاعة والبر والنجدة طفلا وشابا.

- كما كان، أعلى أمثلة فى الوفاء والبر صديقا وزوجا.

- فلا غرو إذا استولى على زوجته الحزن لفقده.

- ولا عجب إذا برح بها الحزن، وبلغ منها مبلغا لم يكد يصل إليه أحد.

- صدقت، فقد جف لبنها من شدة الألم.

- كيف عاش طفلها بدون غذاء؟

- لقد حرم ثدى أمه، ولكن الله أرأف وأرحم من أن يترك رسوله وصفيه بلا غذاء، بعد أن حرم لبن أمه.

- تداركته عناية الله، فكيف؟

- أرضعته ثويبة.

- من ثويبة؟ فما سمعت بها قبل اليوم.

- جارية عمه أبى لهب.

- ما أعجب قدرة الله، وما أخفى ألطافه.

- كأنما أرضعته جارية عمه أبى لهب، ليكون سببا فى موت سيدها غيظا.

- صدقت، فقد كان أبو لهب من ألد أعداء الرسول، وقد هلك من شدة الغيظ، حين سطع نجم الرسول ﷺ، وانتشرت، رسالته وتبينت حجته.

- هلك بعد أن تم انتصار الرسول فى غزوة بدر.

- وكانت البدويات يقبلن على مكة فى موسمين من كل عام

- كما تعلمان أيها الصديقان - ليرضعن أبناء الأغنياء.

ـ ولكنه لم يكن غنيا، فمن التى تولت إرضاعه، وكيف رضيت أن ترضعه بلا مقابل؟

ـ أنت على حق فى هذه الملاحظة، فقد توجهت المرضعات إلى أبناء الأغنياء. ولم يخطر ببال إحداهن أن تقبل على إرضاع ذلك الطفل الصغير.

ـ كانت كل واحدة منهن لاتكاد تسمع أنه يتيم حتى تعرض عنه.

ـ فانصر فن عنه جميعا.

ـ وبقى بلا مرضعة؟

ـ كلا يا صاحبى العزيزين ـ فإن الخير لم ينضب معينه من الدنيا. فقد عطف عليه قلب إحدى هؤلاء البدويات.

ـ الآن ذكرت ما نعنيه، لقد تطوعت حليمة لإرضاعه، بعد أن انصرفت عنه أول الأمر.

من أى القبائل كانت حليمة؟

ـ من قبيلة بنى سعد.

ـ فكيف رضيت بإرضاعه بعد أن انصرفت عنه؟

ـ أراد الله سبحانه ألا تجد حليمة أحدا من أطفال الأغنياء ترضعه، فرأت أن رحلتها غير مثمرة، ولم تشأ أن تعود إلى البادية بغير طفل ترضعه.

ـ لم لا تقول: أن الله قد ألهمها العطف، وقذف فى قلبها الرحمة له والحدب عليه؟

ـ بلى .. وقد حبب إليها ذلك الواجب الإنسانى النبيل. وكافأها الله على صنعها أجزل المكافأة.

ـ أى مكافأة تعنى؟

ـ لم تكد تصحبه معها حتى يسر الله تعالى لها سبيل الخير، لقد فتح لها ذلك الباب.. كل أبواب الخير والبركة. وجلب لها كل أسباب الرخاء والنعيم.

ـ كافأها الله على معروفها، فسمن أغنامها، وكثر بناتها، وأفاء عليها.

من المحفوظات الكيلانية:

ظلى

أنت يا ظلى رفيق عمرى

أنت يا ظلى عجيب الأمر

كم تطول:

ثم تبدو غاية فى القصر

أو تزول:

ثم تعدو بعدها فى أثرى

***

إن ظلى مشبهى كل الشبه

كلما استيقظت صبحا ينتبه

قافزا خلفى طورا ساكتا

دائما لم يدر معنى للكلام

حركاتى كلها يأتى بها

لايبالى سهلها من صعبها

***

أنــت قـــد حـــيـــرتـــنـــى فـــى أمـــرى

أنــت خــلــفــى حــين أجـــرى تجـــرى

أنــت إن أبــطــىء.. بــطــىء الــســيــر

أى نـــفـــع لـــك؟ لـــســـت أدرى

فخر المجد

أنا مازلت تلميذا صغيرا

ولكنى على صغرى مجد

أسير إلى العلا سيرا حثيثا

وأنشط نحو غايتها وأغدو

وليس يضيرني صغرى إذا لم

يثبطني عن العلياء جهد

وليس بنافعى طول وعرض

إذا لم يغنني فهم ورشد

فليس يقاس إنسان بشبر

ليعرف قدره، إن جد جد

ونبت القمح مرتفع قليلا

ولكن، هل له فى النفع حد؟

هو القوت الذى نحيا جميعا

به، وهو الذى ما منه بد

وقد يعلو سنابله نبات

قليل النفع يعجب حين يبدو

وكم عود من القصب اعتلاه

وما هو رفعة للقمح ند

وفخر المرء علم يبتغيه

وإخـــلاص يـحـلـيـــه، ورفـــد

***

وسوف أكون مثل القمح نفعا

وقـدمــا أحــرز الـسـبق المجـد

نعم، وأحب فعل الخير جهدى

وأشـهـر لـلـعـلا والمجـد، بـعـد

وتدرك همتى شرفا ومجدا

وحسبى غاية... شرف ومجد

صحبة الكرام

شقائق النعمان ضمت مرة

فـى طاقــة للـزهـر والقــرنفـل

فاكتسبت فى لحظة من طيبه

ومن يصاحب ذا كمال يكمل

مفتاح القراءة:

كم من حديث معجب شائق

تـتـلـوه أمــى وأبـى مـن كــتــاب

هذا عجيب، فمتى أغتدى

مثلهما أقرأ بين الصحاب

كم ذا أجيل العين فى صفحة

منقبا لا يعترينى فتور

وأنثنى من غير جدوى وما

فهمت شيئا بين تلك السطور

لكن أمى إذ رأت حيرتى

قالت: إذا ما رمت هذا المرام

فهاك مفتاحا لأسراره

هاك كتابا فيه سر الكلام

فيه حروف الهجاء

تبدأ بالأحرف فيه، ولا

تلبث حتى تقرأ المفردات

وتقرأ الأسطر من بعدها

فيصبح الصعب من الهينات

وبعد جد واجتهاد ترى

أنك تتلو مثلنا فى الكتاب

تقرأ ما يشجيك من قصة

ومن حديث معجب مستطاب

فـــــى أى وقـــــت تـــــشـــــــاء

الجمال الساحر

حسن هذا الخد أن قيس به

كل حـسن كـان عنـه قاصـرا

كم شموس قد خبت أضواؤها

حـين لاح الخـــد نـورا بـاهـرا

فجمال الوجه والأخلاق قد

سطعـا للنـاس صـبـحـا سـافـرا

منطق حلو، وحسن رائع

جـمـعـا هذا الجـمـال السـاحـرا

وطنيته

عاصر الأستاذ «الكيلانى» النهضة الفكرية منذ بدايتها، وساهم فيها منذ قيامها، وأوذى فى سبيلها.

ولما اشتعلت الثورة المصرية، قذف فى أتونها بقصائد من الشعر الحماسى الجديد، دلالة على وطنيته الصادقة. ولقد

أجرت إحدى الصحف استفتاء حول العوامل التى تحقق الحرية للوطن. فأجاب الكيلانى: إنى أترك الجواب للبحترى، شاعرنا العربى العظيم، بما أبدع من صور المتناحرين والمتباغضين، وصور ما يعانيه قومه، من نكبات التفرق والانقسام والتناحر والبغضاء، حتى أصبحت الصدور تغلى من الغيظ غليان المرجل. والبحترى يقول فى هذا المعنى:

وفرسان هيجاء تجيش صدورها

بأحقادها، حتى تضيق دروعها

تقتل من وتر أعز نفوسها

عليها بأيد ما تكاد تطيعها

إذا احتربت يوما، ففاضت دماؤها

تذكرت القربى ففاضت دموعها

شواجر أرماح، تقطع بينها

شواجر أرحام ملوم قطوعها

إذا افترقوا عن وقعة جمعتهمو

لأخرى: دماء ما بطل نجيعها

تذم الفتاة الرود شيمة بعلها

إذا بات، دون الثأر وهو ضجيعها

حمية شعب جاهلى، وعزة

كليبية أعيا الرجال خضوعها!

فالتفرق.. كما ترون .. أصل الاحتلال، ومصدر البلاء. والاتحاد وسيلة الاستقلال، ومحقق الجلاء، ولا معدى عن الاتحاد بأشمل معانيه وأوسع حدوده. وتوحيد الجهود والنيات، والأهواء والأهداف.

وللكيلانى القصيدة التالية:

يانيل، قد قام منا للعلا داعى

من بعد اغفاءة طالت وتهجاع

يا نيل، إنا أفقنا بعد نومتنا

نبنى العلا بفؤاد غير مرتاع

يارب شيخ حناه الدهر أقصده

سهم الردى بين إحناء وأضلاع

قد غيبوه فلم نسمع له خبرا

وأزهقوا روحه لم ينعه الناعى

فاضت إلى الله، تشكو ظلم قاتلها

وجور وغد، لئيم الطبع، خداع

قالوا: أولئك أغنام مضللة

يلم أشتاتها من عندنا راع

قلنا: بنو النيل آساد مجمعة

فرقتموهم بأحزاب وأشياع

نعم، واوقعتموا ما بينهم احنا

بذرتموها بأرض ذات أمراع

فأخصبت ونمت ابان نومتنا

وقد أفقنا، فذوقوا خيبة الساعى

منزلته بين معاصريه:

تجد الأمم الحية كلما نبغ فيها أحد أبنائها فى أية ناحية من نواحى عظمتها، أشادت بذكره، وأقامت له حفلات التكريم: حكومة وشعبا، تقديرا للفضل، وتشجيعا على الازدياد فيه، وايذانا بأن النبوغ يجد من الاجلال والاكرام المحل العظيم، فيجرى الكرام على آثاره، وينبه الغافلون، ويعمل العاملون.

وإنى سأسرد كلمة من مجموع كلمات عدة ألقيت فى حفل تكريم «كامل كيلانى» سنة ١٩٣٤، إذ نادوه نقيبا للأدباء.

قال كاتبها حين ذاك:

لقد رأينا مصر، وقد أخذت، منذ نصف قرن أو أكثر، تنفض عنها غبار الخمول الذى خلفته عهود الظلم والجهالة، وظهر فيها أفراد ضربوا فى نواحى العظمة بسهم، وأفادوا بلادهم، بما وهب لهم من اخلاص وعبقرية، فأحلتهم فى سويدائها، وأوسعت لهم على صفحاتها، يخطون فيها جليل ما صنعوا، فيكون لهم فى ميدان الشرف ذلك المجد الوطيد.

على أن الأستاذ (كامل كيلانى) فاز بالقدح المعلى فى الأدب والفن.

ثم إن أشعاره تقتضينا أن نكرمه فى شخصه.

هذا إلى أن التأليف والترجمة، من اللغات الحية التى أضاف بها آثارا وروائع من أقلام كتاب الغرب، وذخائر من نفائسهم إلى لغتنا الشريفة - كل ذلك نقله بأسلوب ممتع - فخدم اللغة والبلاد خدمات، مهما أطنب القلم فى البيان، فلن يبلغ غاية الوصف.

وهذه كتب الأدب التى قدمها نابغتنا للمتأدبين بعد أن ألبسها من عبقريته، وخلع عليها من ثمار قريحته، فقرب مواردها، وجعل تذوقها على طرف الثمام، حتى جعل أمثال: «ابن الرومى» و «المعرى» و «ابن زيدون» يخاطبون هذا العصر بلغة يفهمها الكبير والصغير.

هذا شأن (كامل كيلانى) فى هذه النواحى.

أما شأنه فى القصص، وفيما يتعلق بأبنائنا.. رجال الغد، فعجب أى عجب!

وما الأقمار فى بهائها، أو الشهباء فى عليائها، بأكبر شهرة، وأجل نفعا من قصص (كامل كيلانى) المفيدة.

فصار اسمه مرادفا لآية التأليف. وقد فتح لنا فتحا فى تربية الأطفال، على خير مثال.

ثم تابع المحدث فى حفلة التكريم حديثه قائلا:

وحسبنا شهادة بعض أولئك الذين ينفون عليه فضله ومكانته. فقد أنطقهم الله بالحق انطاقا سجل على صفحات الخلود.

والإنسان يحار: هل يهنئه على ما امتاز به من حسن الاختيار وبراعة الأسلوب، أو يهنئه بما هيأ لأبنائنا من كتب

وقصص، كان لهما أثر طيب واضح فى تنشئة عقولهم، أو يهنئه على وفرة نشاط، وجهد مجهوده وجهات.. كلها صالح ومثمر، أو يهنئه بنبوغه فى عديد اللغات ونقله لنا منها مشكاة وضاءة مصابيحها، فكانت للأدباء والمتأدبين نهجا قويما فى تربية الذوق، واتساع دائرة الخيال وتزويده بثروة علمية جليلة؟

والحق... أننا نهنئه بهذا جميعا، ونهنىء به وطننا أنجبه كما أنجب كثيرا من الموهبين، وخلد العاملين.

●

الفصل الرابع

الرائد يتحدث

التربية وضرب الأمثال:

كثيرا ما لجأ أبى، فى تربيتى، إلى ضرب الأمثال ورواية القصص، أذكر لكم أن بعض أشقياء الصبية أغرانى بتسلق الترام، وأنا صغير، فرآنى أبى، وأنا أفعل ذلك، ولم أره.

فلما عاد إلى المنزل، قال لى:

«لقد حدث اليوم... ياولدى... أمر عجيب. فقد هوى ولد شقى تحت عجلات الترام، فقطعته شطرين، وظل الناس يلعنونه، ويلعنون أهله.

وهنا ذكرتك يا ولدى، فحمدت الله على حسن أدبك، وبعدك عن هذه الدنايا.

أقول لحضراتكم: إن الأرض كادت تغوص بى، وكان هذا آخر عهدى بهذا العمل الممقوت.

وفى ذات يوم قلت له.. وكنت طفلا: «إنى لأخشى العفاريت والحشرات المؤذية، حين أصعد سلم البيت فى ظلام الليل».

فقال لى:

«من الذى يحرسك وأنت نائم؟».

قلت: «هو الله».

قال: «أتظن أن من يحرسك وأنت نائم، لا يحرسك وأنت يقظان؟».

فكان ذلك آخر عهدى بالخوف.

ولقد قرأ لى أبى كثيرا من القصص فى فجر حياتى كان لها أثر كبير فى نفسى وأدبى وخيالى.

القدوة الحسنة:

وجدت أبى،وأنا طفل، لايكاد يترك الكتاب من يده. فأحببت أن أكون مثله، وقلدته فى ذلك، حتى أصبح ذلك دأبى إلى الآن. وانقلب التطبع طبعا أصيلا.

ووجدته يصل الرحم، فقلدته فى ذلك.

ولو رأيته... على عكس هذه الصفات ... فقلدته فيها كذلك، وما أصدق قول القائل:

مشى الطاووس يوما باعوجاج فقلد شكل مشيته بنوه
فقال: علام تختالون؟ قالوا: بدأت به ونحن مقلدوه
فخالف سيرك المعوج واعدل فإنا.. إن عدلت.. معدلوه
أما تدرى أبانا كل فرع يجارى بالخطى من أدبوه
وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

روائع من أحاديث جحا:

نشأت - منذ طفولتى - أحب الكتب. وقدنما هذا الحب فى نفسى حتى أصبح كلفا وهياما. وقد فجعنى كثير من أصدقائى فى كتب لا أستغنى عنها، واستأثروا بها دونى. ورأيت - والحاجة تفتق الحيلة - أن أضع حدا حاسما لهذا العبث. وظللت أتلمس الحجج والمعاذير، حتى اهتديت إلى حجة بارعة أعتذر بها لكل صديق - مهما بلغت منزلته من نفسى - لأتخلص من إعارته أى كتاب يطلب.

ولم أخترع هذه الحجة اختراعا، ولكننى اقتبستها من منطق (جحا) وما أبرع هذا المنطق فى التخلص من مآزق الحياة ومشاكلها المعقدة!

فقد زعموا أن (جحا) اضطر إلى الخطابة مرة. فقال لسامعيه:

«أتعرفون ما أقوله لكم؟».

فقالوا: (لا)

فالتفت إليهم ساخرا، وقال:

إذن فأنتم جهلاء، وليس فى قدرتى أن أخطب فى الجهلاء.

فلما أحرج فى موقف ثان: أصر سامعوه على أن يقولوا له عكس ما أجابوه به فى المرة الأولى، فما كاد يقول لهم:

«أتعرفون ما أقوله لكم؟».

حتى قالوا له: «نعم».

فنزل عن منصة الخطابة، وقال لهم:

إذن فأنتم فى غير حاجة إلى ما أقول!

فلما أحرج للمرة الثالثة، أصر سامعوه على أن ينقسموا فريقين: أحدهما يقول نعم، والآخر يقول: لا.

وما كادوا يفعلون حتى التفت إليهم جحا هازئا، وقال: (الآن علمت أن فريقا يعلم ما أقول، وفريقا يجهله، فليخبر من علم.. من لم يعلم!).

وهكذا خرج بلباقته من تلك المآزق الحرجة.

وقد اخترعت حجة تدفع عنى إلحاف المستعيرين، واقتبستها من منطق (جحا) البارع، فكنت أقول لكل من تحدثه نفسه أن يفجعنى فى كتاب، قائلا:

«إن هذا الكتاب رخيص الثمن، فما أيسر عليك أن تشتريه. وإن كان ثمنه فادحا، فما أجدرك أن تتركه لى، ولا تفجعنى فيه فليس فى قدرتى أن أشتريه مرة أخرى. ولست أستطيع أن أستغنى عنه يوما واحدا».

طريقة احتفاظه بالكتب:

وهكذا استطعت أن أحتفظ بكتبى كاملة غير منقوصة، ونما عدد الكتب إلى أن ضجر بها أهل بيتى، وضجرت بها معهم، حتى كنت أفضل - فى بعض الأحيان - أن أشترى الكتاب الذى تعرض إليه حاجتى، على أن أبحث عنه بين تلك الأكداس.

وبعد افتكار طويل اهتديت إلى طريقة أخرى، تيسر على البحث، وتقطع أمل كل مستعير، تلك هى أنى قسمت الكتب إلى مجاميع، تضم كل مجموعة منها عدة كتب، يصعب حملها، ويستحيل التفريط فيها. وربما وقفت فى فترات راحتى بين قماطر الكتب، وأجلت لحاظى فى محتوياتها، وأطلت تأملى، وأنا مأخوذ بروعتها كما يؤخذ البستانى بروعة الأزهار.

وإنى لأذكر أننى وقفت - ذات يوم - أتخير كتابا أقرؤه على عادتى فاسترعى بصرى مجلد ضخم يحتوى ديوانى (الشريف الرضى) و (البحترى) فعجبت من ضخامته، وقلت فى نفسى:

(هذا مجلد شرقى ضخم، يحوى مئات من الصفحات، فى كل صفحة منها أسطر كثيرة، وفى كل سطر منها فكرة رائعة، أخرجها ذهن ممتاز، وصاغتها شاعرية فذة. فأى كنز حافل هذا المجلد الضخم؟).

وذكرت بعض المفتونين الذين يتهمون الأدب العربى بالعقم، ويفترون على أفذاذ العرب أنهم سطحيون، وهم لم يقرءوا من كل هذه الكنوز إلا مختارات متفرقة مشوهة، لم يوفق مختارها فى شىء كما وفقوا فى الاهتداء إلى مجموعة يجدر بهم أن يطلقوا عليها اسم (مجموعة مختارة من الشعر السخيف!) وقلت فى نفسى:

(لعل هؤلاء الأدباء الناشئين المفتونين بالأدب الغربى - الأدب الغربى وحده - يقبلون على هذه الكنوز الشرقية، ويمتعون أنفسهم بما فيها من طرف وروائع فيعرفوا أى تراث خلف لنا أسلافنا العرب؟).

ومازلت غارقا فى هذه الذكريات حتى قطعتها على فكرة طارئة.

فقد بدأت نفسى تتنمر، وخشيت أن أرمى بالاسراف والاغراق والتحمس الكاذب للعرب وللكتاب العرب. فلم أطق صبرا على هذه التهمة، وأردت أن أبرر- بينى وبين نفسى على الأقل- ما ذهبت إليه من تمجيد هذه الروائع، وأثبت بالبرهان أن فى كل سطر من هذه الصفحات جمالا أخاذا،فتعمدت ألا اختار شيئا، وأصررت على أن أفتح هذا المجلد الضخم، وأقرأ أول ما يقع عليه نظرى من الشعر، وأقيده فى حافظتى، وما كدت أفعل حتى طالعنى قول (الشريف الرضى):

غرست غراسا كنت أرجو لقاحها ... وآمل يوما أن تطيب جناتها

فإن أثمرت لى غير ما كنت آملا ... فلا ذنب لى إن حنظلت نخلاتها

فغرقت فى عالم من السحر، ثم قرأت بعد هذين البيتين الأبيات التالية:

من يكن زائرى يجدنى مقيما ... أتبع الفائتات بالرائعات

من ندامى- على الهموم- قعود ... يدعمون الأذقان بالراحات

كلما أذرفوا الدمع أمدتـ ... ـهم دواعى الهموم بالعبرات

فتركت الكتاب، وقلت فى نفسى:

(حسبى من القلادة ما أحاط بالعنق)، ورحت منتشيا من فرط السرور بما قرأت، وقد اقتنعت نفسى بأن حماستى للعرب وآثار العرب وروائع العرب، حماسة رشيدة؛ لا أثر للأسراف والتعصب فيها.

وكما أننى أقرأ روائع الفحول من أفذاذ الشرق... من غير أن أكلف نفسى الاختيار... لوثوقى من ابداعهم دائما، فإننى شديد الولع ـ كذلك ـ برؤية أى بلد شرقى، من غير أن أعنى نفسى بتخيره، لأننى أحس لكل بلد من البلاد الشرقية روعة لا تقل عما أحسه لغيره من هذه البلاد.

وكما أننى أمقت المفاضلة بين الشعراء، والمفاضلة بين الكتاب، والمفاضلة بين القصائد، فإننى أمقت ـ كذلك ـ المفاضلة بين البلدان! وليس من الانصاف أن تفاضل بين حسناوين، قد كملت محاسنهما، وبرع جمالهما، واستبد سحرهما. ولكن من البر بنفسك أن تتمتع بحسنيهما.

كيف نحبب القراءة إلى الأطفال؟

زعموا أن ثلاثة أمراء، إخوة أشقاء، خرجوا يتنافسون فى مهر بنت عمهم السلطان، بعد أن تواعدوا على الاجتماع آخر العام فى مكان بعينه، ليروا من يظفر بأنفس هدية للأميرة.

فلما التقوا رأوا أحدهم قد ظفر بمنظار سحرى، يرى فيه الناظر كل ما يدور بخلده، ولو كان فى أقاصى الدنيا.

وظفر ثانيهم ببساط سحرى، يحمل راكبه محلقا به فى كل جو من الأجواء، فيبلغه غايته فى لحظات يسيرة.

وظفر ثالثهم بتفاحة شافية، تبرىء من السم وتعيد الحياة إلى من أشرف على التلف.

ونظروا فى المنظار فإذا الأميرة على فراش الموت تحتضر، فأسرعوا إلى البساط، فإذا بهم عندها فى الحال، وأدنوا التفاحة منها فشفيت على الفور. وحاولوا أن يعرفوا أيهم صاحب الفضل فى شفائها فلم يهتدوا إليه.

فلولا المنظار ما عرفوا مرضها الخطير. ولولا البساط لهلكت قبل أن يصلوا إليها. ولولا التفاحة الشافية ما كان لوصولهم فائدة. فإذا نقصت واحدة من هدايا الأسطورة ضاع كل أمل فى شفاء الأميرة.

وإن فى هذه القصة مثلا دقيقا يوضح ما يجب على من يتصدى للكتابة للأطفال أن يهدف إليه، ويجعله نصب عينيه.

أن تحبب الكتاب إلى نفس الطفل، أول طريق لتمكينه من

القراءة ومتى ظفر بهذه الغاية، ظفر بالمنظار السحرى، الذى يرى فيه صاحبه كل ما يريد أن يراه.

أما الأسلوب القصصى الساحر، فهو بساط الريح الذى ينتقل بالقارىء إلى أبعد الآفاق الفكرية، فى لحظات يسيرة، ويطير به على أجنحة الخيال البديع، محلقة فى سماء الحقيقة، دون أن يلحق به كلال ولا جهد.

أما التفاحة الشافية، فتتمثل فيها ما تتركه القراءة النافعة من آثار نفسية رائعة، تشفى سموم الجهالة، وتبرىء من النزعات العارمة التى تعجل بصاحبها إلى الهلاك وتقذف به.

ولنقف عند أول هذه الأهداف الجليلة لحظة قصيرة. فما تتسع هذه العجالة الخاطفة لغيرها.

لنقف عند الخطوة الأولى، وهى تحبيب القراءة إلى الطفل، وتمكين الفصحى من نفسه، وحمايته مما يغمره من البيان المشوه المضطرب، وتجنيبه ذلك الشر المستطير من سيل العامية الجارف الذى كاد يغرقنا فى مستهل نشأتنا الثقافية، وما زال يغمر الكثيرين من ناشئة اليوم ورجال الغد، فيقضى على مواهبهم الفنية أو يكاد فى زمن حداثتهم. ولنهيىء لهم به بيانا عربيا خالصا، يطبعهم على الفصحى منذ طفولتهم

الباكرة. حتى إذا كبروا صارت لهم الفصحى، كما كانت لغيرهم من أسلاف العرب فى عصور القوة الأولى، سليقة وطبعا، وأصبح البيان العربى متأصلا فى نفوسهم عادة وملكة. وتخلصوا من العجمة المتفشية بين شباب العصر وفتيته.

أما الطريقة إلى هذا الحلم الجميل، فتحقيقها ميسور غير مستحيل: إننا إذا راقبنا كلام الطفل، وهو فى مستهل طفولته، رأيناه يلجأ إلى تكرار الجمل. إذا قص علينا خبرا، كأنما يتثبت من معانيها فى ألفاظها المكررة.

فلماذا لا نكتب، وهو فى هذه السن، محاكين أسلوبه الطبيعى، فى تكرار الجمل والألفاظ، لنثبت المعانى فى ذهنه تثبيتا؟

ولماذا لا نكرر له الجمل برشاقة لنسهل عليه قراءتها؟

ذلكم أجدربنا وأليق، فإن لكل مقام مقالا.

ومن الحقائق المعروفة أن الطفل - فى هذه المرحلة - ملول، يتهيب الكتاب. فلننزع من نفسه هذا الملل، ولنحبب إليه الكتاب بكل وسيلة ولنبسط له الأسلوب تبسيطا، مكثرين من الصور الجذابة الشائقة، التى تستدعى انتباهه، لنشعره أن الكتاب تحفة تهدى إليه اهداء، وليس واجبا يكلفه تكليفا. فإن

الطفل - إذا ساء ظنه بالكتاب - صعب اجتذابه إليه بعد نفوره منه.

وقد وفق أكثر من تصدوا لتأليف كتبَ الأطفال، توفيقا عجيبا، فى تبغيض القراءة إلى نفوسهم فأصبحوا يمقتون الكتاب، ويهربون من قراءته، لأن المؤلفين لم يراعوا سن الطفل وميوله ورغباته. ولم ينزلوا إلى مستوى مدارك الأطفال.

ومن الانصاف أن نقرر بصراحة أنهم لم يضعوا كتبهم على نسق خاص أومنهج بعينه، وأنهم فى تأليفهم لم يتشبعوا بفكرةفنيةتنظيم الكتاب وتآلف أجزائه، لأنهم يقنعون بتصيد موضوعات الكتاب كيفما أتفق أن يتصيدوها فيخرج الكتاب خليطا مضطربا لا تؤلف بين أجزائه فكرة بعينها، ولا يتناسب أسلوبه مع مدارك الأطفال.

إن الطفل ميال بطبعه إلى الحكايات والقصص، وهو بغريزته مفتون برؤيةالصور الجذابة. فلنختر له منها ما يناسب سنه، ويتفق مع ميوله ورغباته وتفكيره.

ولنقصر جهدنا فى استعمال الألفاظ الجديدة، ولنؤلف له من الألفاظ القليلة التى يقرؤها فى بضعة أسطر عدة صفحات

كاملة، لندخل فى روعه أن القراءة ليست صعبة كما يتوهم، وليست شاقة مضنية، كما ألفها فى الكتب الأخرى. بل هى سهلة ميسورة، وهى إلى سهولتها ويسرها ممتعة شائقة، تملأ نفسه بهجة وانشراحا.

وثمة يشعر الطفل بهمة فى نفسه. إذ يرى أنه يقرأ صفحة كاملة بجهد يسير. فهو لن يتم قراءة السطر الأول حتى يسهل عليه قراءة السطر الثانى والثالث والرابع وهكذا. لأن الألفاظ لا تكاد تتغير فى الجمل إلا بمقدار يسير.

وليجعل المربى همه فى قصصه، قصة الرجل الذى كان يحمل الثور صاعدا السلم، وهابطا به دركه، دون أن يبدو عليه شىء من آثار التعب والجهد، فلما سئل فى هذا أجاب قائلا:

لقد تعودت حمل الثور منذ ولادته كل صباح. وما زلت أكبر ويكبر معى الثور ويزداد نمونا كل يوم زيادة قليلة مضطردة، حتى اكتمل نماؤنا. ولم أشعر أن وزن الثور قد زاد يوما عما كان فى سابقه. ولم أحس له ثقلا إلى اليوم.

ثم إنه على المربى أن يبدأ بتسلية الطفل، متدرجا به كل يوم تدرجا بطيئا، لا يكاد يشعر أن له أثرا، مستعينا على هذا الغرض بالصور الملونة الجذابة، والشكل الكامل، والألفاظ

السهلة. حتى إذا اطمأن إلى الأسلوب السهل، وامتلأت نفسه ثقة بقدرته على القراءة، انتقل به إلى المرحلة التالية، فمزج له التسلية بالفائدة.

ثم عليه أن ينتقل به خطوة بعد خطوة، حتى يرى فى فنون المعرفة وحدها متعة وتسلية لا يعدلهما شىء من فنون المتع وضروب التسلية.

ثم إن على المربى فى قصصه، تحبيب الفصحى إليه، وتعويده النطق بالصحيح من الألفاظ، وتدريبه على الأخذ بالصحيح من الآراء، فإن الخطأ اللفظى، كالخطأ المعنوى. فإذا انطبع أحدهما أو كلاهما فى ذهن الطفل صعب اقتلاعه فى قابل أيامه. ولا معدى للمربى عن ترغيبه ـ بكل ما يملك من الوسائل ـ فى الأسلوب الرائع والمثل الصالح فلا يسمح له بعبارة واحدة، تقلل من شأن لغته، أو تصغر من جلال القيم الخلقية.

إن تحبيب الكتاب، وتخير الأسلوب الصالح، وتثبيت الفضائل فى نفس الطفل هى الأهداف الثلاثة التى ترمى إليها تربية الأطفال بالقصص. ولابد من اجتماعها، لبلوغ الغاية المرجوة، كما اجتمعت هدايا الأمراء الثلاثة لشفاء الأميرة.

مشاكل المجتمع:

وجهت مجلة الأثنين إلى الاستاذ (كامل كيلاتى) خطابا من شاب يائس، ليجيب عن مشكلته.

وفيما يلى نص الخطاب والإجابة عنه:

لا أعرف أبى.

هذه مشكلة شاب، تكاد تعصف به الحيرة، لأنه لا يدرى ابن من هو؟ فأرسل يسألنا الهداية والارشاد.

وهذه هى رسالته وهذا هو رد الاستاذ كامل كيلانى عليها:

ابن من أنا؟

سؤال لم يخطر على بالى يوما أنى سأوجهه إلى نفسى، ولكن هأنذا أوجهه اليوم، لا إلى نفسى فحسب، ولكن إليك.

وإذا كنت أكتب إليك، فأنا إذن أوجه سؤالى إلى كل فرد فى الشعب كذلك.

لقد نشأت وشببت وأنا لا أعرف لى أبا وأما.

وفى نشأتى وشبابى ذقت من ألوان الحنان ـ فى أحضان والدين كريمين ـ مالا يطمع وليد فى أكثر منه.

ولعله بفضل هذا الحنان وحده كان نجاحى فى دراستى حتى حصلت على (بكالوريوس)كلية الزراعة. وكان توفيقى فى حياتى العملية.

لكن القدر ساق إلى من أطلعنى على السر الرهيب. فوقفت على الحقيقة، وإذا الحياة تصغر فى عينى، لأننى صغرت فى عينى نفسى!

إنى مجهول الأصل يا سيدى، لايعرف أحد والدى، وهذان الكريمان اللذان منحانى اسميهما، وحنانهما،إنما منحانى كل ذلك احتسابا، بعد أن تسلمانى من أيد ليست بينها أيدى أمى وأبى، لأنها أيدى موظفى الملجأ.

وبدأت - منذ عرفت هذه الحقيقة الفاجعة - أحس صراعا داخليا عنيفا، وأشعر بالخجل إزاء كل إنسان.

وكيف لا؟ ألست لقيطا؟

فبأى وجه إذن ألقى الشرفاء، وأتحدث إليهم؟

وهذان الكريمان - اللذان غمرنى حنانهما وفضلهما - ما ذنبهما حتى يتحملانى بعد اليوم ويشقيا معى؟

وطغت على أفكارى موجة تساؤل عاتية. وأنا - فى كل حين - أتساءل: ترى من أنا؟ وكيف ولدت؟ وأين أمى؟

أتراها الآن ذكرى فى ضمير الثرى؟ ومن يدرى؟

ربما كانت ـ حتى اليوم ـ حيةً تقاسى مرارة البؤس، خادمة فى أحد البيوت، أو متسولة تسأل الناس، فيعطونها أو يحرمونها ويحتقرونها على الحالين. وقد أكون أنا من بينهم!

إنى بائس معذب الضمير ياسيدى، أرى الحياة ظلاما فى ظلام وأكاد أفقد تعقلى وإيمانى كلما شرد فكرى فى مشكلتى الخطيرة..

بربك يا سيدى: هل لديك لمثل حالى علاج؟

وهل من حقى أن أعيش، وأن أرفع رأسى، كسائر الناس؟

لاتعذب نفسك!

رد الأستاذ (كامل كيلانى):

أيها الشاب المعذب، إننى أربأ بشاب فى مثل ثقافتك أن يعذب نفسه بهذه الأوهام، فمن أين لك أن أمك لم تكن سيدة شريفة، أو أن فقر والدك أو فقده هو الذى انتهى بك إلى الملجأ؟

ومالك لا تشكر الله الذى وهب لك هذين الكريمين،فربياك وعلماك، ومنحاك حبهما خالصا؟

ولماذا لا تبادلهما الحب، فتسعدهما، كما أسعداك؟

لقد طلبت منا علاجا، فإذا كنت جادا فى طلبك فإن خير علاج لمثلك أن تسرع بالزواج. ففى حنان الزوجة ما يعوضك عن الحنان الذى فقدته، وفى تبعات الزواج ما يشغلك عن التفكير فى أوهامك.

وحين تصير أبا فلن تعود إليك هذه الهواجس التى تلح عليك وتقض مضجعك، إذ يتحول كل اهتمامك حينئذ إلى أولادك، ويشغلك التفكير فى مستقبلهم عن كل شىء حتى نفسك!

إن ذلك القلق الذى تسميه.. خطأ (عذاب الضمير) ليس إلا أثرا للصدمة التى منيت بها، وسيزول حتما. أما ضميرك فما الذى يقلقه أو يعذبه، وما جنيت شيئا تؤاخذ عليه؟

وإن أردت أن تحسن إلى أمك المجهولة التى تتوهم أنها - الآن - حية تعانى بؤس الحياة - ففى وسعك أن تحسن إليها فى شخص كل بائس ومحروم.

بقيت نظرة الناس إليك، وأحب أن أؤكد أن الناس سيحكمون على شخصك وعملك. فلن يقدروك أو يحتقروك لأنك ابن فلان أو لست ابن فلان. على أن العاقل لا يهتم إلا بكلام العقلاء، وهؤلاء أبعد ما يكونون عما تخافه وتخشاه!

إتخذ أيها العزيز من هذه الثورة ثروة، وحول سخطك قوة تدفعك إلى الأمام. وعليك أن يغلى دمك بنار الاندفاع فى العمل. فهذا خير من أن يغلى بنار الغيظ والحقد على نفسك وأنت لم تجن ذنبا.

وثق أنك ستكون موضع احترام الجميع وتقديرهم. فقديما قال الشاعر:

إن الفتى من يقول هأنذا ليس الفتى من يقول كان أبى سدد الله خطاك. وألهمك الصواب.

أسئلة صحفية

لقد سألنى كثير من الصحفيين : (أى بلد تفضل؟) فكان جوابى دائما: (أن أجمل ما رأيته هو كل بلد رأيته).

ولقد كان هذا السؤال - كلما ألقى على - يذكرنى بقصة ذلك العربى المنصف حين طلب إليه أحد الخلفاء أن يفاضل بين نوعين من الحلوى. فسأل الخليفة أن يحضرهما إليه، ليكون حكمه أصدق وأدق وأخذ يتذوق هذا مرة، وذاك مرة. ثم التفت إلى الخليفة - آخر الأمر - وقد تملكته الحيرة، وقال:

(كلما أردت أن أحكم لأحدهما - يا أمير المؤمنين - قام لى الآخر فأدلى بحجته!).

وهكذا يشعر المنصف، كلما حاول أن يفاضل بين ربات الجمال، أو بين فحول الكتاب، أو بين أمهات المدن!

ففي دمشق، وبيروت، والقدس، ويافا، جمال أخاذ. وذكريات عزيزة، وأدباء فحول، وشباب يلتهبون غيرة وحماسة واخلاصا، وفيها عقول كبيرة، ونفوس عامرة بالإيمان، زاخرة بحب الوطن العربى، الذى يجمع بين أبناء العربية، على تنائى بلادهم، واختلاف نزعاتهم، وشتى شعوبهم.

وفى تلك البلاد الحبيبة - من روائع الطبيعة - ما يفجر بهجة وانشراحا. وقد لقيت من زعمائها وقادة الرأى فيها أفذاذا. وسمعت منهم أحاديث معجبة، لا تكفى هذه الكلمات الموجزة لسرد واحد منها وتحليله واظهار مواطن قوته، ومناحى جلاله وروعته...

ومن حسن الملاءمة والانسجام أنك ترى روعة المناظر فى هذه البلاد متسقة مع صفاء نفوس أهلها، وجمال أخلاقهم، وحسن عشرتهم.

وقال الكيلانى: إن شعورى نحو مؤلفاتى شعور عجيب حقا. فإننى لا أكاد أفرغ من إظهار كتاب، حتى أشتغل بغيره،

وينصرف كل جهدى وتفكيرى إلى المؤلف الجديد، فلا أكاد أفكر فى المؤلفات القديمة.

وكثيرا ما أتحاشاها وأهرب من قراءتها بعد طبعها، وربما ساقت المصادفات إلى، كتابا منها، ولم أجد أمامى غيره، فأفتح الكتاب، مؤثرا القراءة فيه على البقاء وحدى بدون قراءة، ولا أكاد أقرأ فيه حتى آنس به وأطرب لقراءته كأنى قارىء غريب، وربما قرأت فصولا دون أن أشعر بملل. حتى إذا طويت الكتاب عاودنى شعورى القديم، فما أود النظر إليه.

وقال الكيلانى: إن حرب اللغة العربية: بين الفصحى والعامية، تلك التى كان يكلف بها الناس بالأمس إنما هى جزء من خطة ضخمة يدبرها الاستعمار، ويدعو لها.

فقد سمم المستعمر جميع الآبار الثقافية، واستطاعت الثورة أن تحطم خططه، خطة بعد أخرى، إلى غير رجعة.

وكانت الدعوة إلى اللغة العامية، من بين هذه الخطط، التى حاربها الكيلانى، منذ عام ١٩٣٠م، عندما عقدت مناظرة ضخمة، بين (إبراهيم رمزى) و (لطفى جمعة) .وحضرها طائفة من كبار الأدباء، أمثال شوقى، والهلباوى، وصادق عنبر، ومحمد الهراوى.

وقد انتصر يومها الحق بعد كلمة صريحة، علق بها على كلمتى المتناظرين، وفند فيها العبارات التى استغلت للدعوة إلى العامية.

●

الفصل الخامس

الكيلانى الطائف

إنها ظاهرة غريبة، لوحظت على الأستاذ الكيلانى، فى أخريات حياته، على الرغم من تحمله الآلام والسقام! فكنا نجده يخرج مع أحد رفاقه وسائق سيارته فى الصباح، لزيارة أضرحة الأولياء والصالحين، ويحسن فى طريقه على البائسين والمساكين، وكأنه زهد الدنيا. وإذا ما تذكر حقوق إخوانه وزملائه نحوه فى تلك اللحظات خرج فى المساء إلى صديقه (فلان) فإذا وجده جلس معه، أو طلب اصطحابه معه، فيأخذه معه فى عربته، لكى يذهب معه إلى صديق آخر، فإذا لم يجده، ترك له رسالة بسؤاله عنه، وأنه يريد مقابلته. وأنه إن لم يتمكن الصديق من رؤيته، فإنه يطلب إليه الدعاء. وكان عزمه وهدفه الاطمئنان على جميع خلصائه وأصدقائه، وكأنه يستودع فى هذه المرة كل من يراه، ومن لم يره، ويطلب إليهم جميعا السماح والدعاء!

الكلمة الأخيرة:

أحس الكيلانى قرب نهايته. وذلك لما كان يعانيه من آلام المرض فكان رثاؤه لنفسه، قبل أن يرثيه غيره.

حتى قال لأحد الصحفيين فى ذلك الحين:

(أعرف أننى سأموت وأن هذه هى النهاية. وأن هذه هى الساعات الأخيرة فى عمرى. ولقد عشت حياتى أقرأ وجوه الناس، أعرف ما يقولون وما يخفون وقد قرأت فى وجه كل من حولى أننى أموت).

ثم استطرد، فقال:

(إننى أريد أن أقرر حقيقة كبيرة. هى أننى لم آخذ مكانى قط، ذلك بأن الحقد والحسد والغيرة أكلت كل المحاولات التى بذلت لأجل أن أجلس على المقعد الصحيح، وأقف فى المكان المناسب لكننى غفرت لكل الذين أساءوا إلى، ووقفوا حجر عثرة فى طريقى. غفرت لهم وعفوت عنهم.ودعوت الله أن يعفو عنهم أيضا).

ثم قال

لست أدرى : هل كنت أحس أننى سأموت بهذه السرعة ومازالت كلمات المرحوم محمد على علوبة تطن فى أذنى، وكانت دائما تدفعنى لكى أعمل وأكتب بلا راحة ولا توقف؟ قال علوبة (باشا) يوما: إن (كامل كيلانى) هو صاحب الثورة

(البيداجوجية) الرشيدة فى عالم الأطفال هذه الكلمات القليلة كانت تكمن وراءها كل جهودى طوال السنوات الماضية).

ثم أضاف إلى ما قال، قوله:

(وهأنذا أموت، واكتبوا عنى أنى لم أنل كلمة تقدير واحدة، لم أنل جائزة .. مكافأة لى طوال حياتى).

ثم قال.

(لا أذكر فى حياتى أننى قصرت فى واجب نحو صديق. وكان كل الناس أصدقائى، وتمرد على أعدائى. فلم أستطع أن أروضهم).

ثم تابع قوله، فقال:

لقد أحست الدولة بجهودى أخيرا، ويوم قررت كتبى على المدارس، شعرت أن الصبح أوشك أن يطلع، وذهبت لأشكر السيد (كمال الدين حسين) فقال: لاشكر على واجب.

فقلت له : إن الشكر يجب أن يوجه للذين يقومون بالواجب وهذا أول واجب تؤديه الدولة نحوى.

وسكت (كامل كيلانى) قليلا، وحاول أن يحرك يده ليمسح عن جبينه سمة الموت فلم يستطع.

ثم أذاع السر الذى كان يكنه فى نفسه لأول مرة، واستجمع البقية الباقية من قواه، وقال:

إن الدافع الوحيد لترجمة النص الحرفى لقصة (أبو خربوش) إلى الإنجليزية، التى نشرتها فى الكتاب - هو أنى كنت أستمع إلى رائد الثورة المصرية، وبطلها، فى الإذاعة، وهو يخطب بالإنجليزية. فقلت : من يدرى؟ لعل من بين الأطفال من سيواجه مثل هذا الموقف يوما ما فكيف لا يعرف لغة أخرى؟ وترجمت الكتاب، وأصبح يستطيع أن يقرأ بالعربية والإنجليزية القصة نفسها بلغة بسيطة واضحة.

ثم أدار رأسه على فراش الموت. وقال:

لقد عشت حياتى أتمثل ببيتين من الشعر لم أتخل عنهما. وكلما تعرضت لمحنة أو مررت بامتحان لم أكن أفعل شيئا إلا أن أرددهما.

واليكم البيتين:

أبدعت فاحتمل المكاره صابرا ... إن الشقاء الحق أحسن مبدع

وعليك بالفزع المؤرق، إنه ... زاد الأبى، ولذة المترفع

وهذان البيتان من تأليفى.

وبعد ساعات قليلة من الادلاء بحديثه الصحفى الأخير،

الذى سجله بنفسه على صفحات التاريخ غلبه الالم، وأحاط به السقم، وألمت به سكرة الموت، فأدار رأسه إلى القبلة، ناطقا بالشهادتين، ثم فارقت روحه جسده، صاعدة إلى بارئها، ذى الجلال والاكرام.

وفاته:

عبر (كامل كيلانى) طريق الحياة، منتقلا إلى جوار ربه مساء يوم الجمعة،لثمان خلون من ربيع الثانى سنة ١٣٧٩، الموافق التاسع من أكتوبر سنة ١٩٥٩م. ودفن صباح يوم السبت ١٠/١٠/١٩٥٩، بمدافن الأسرة، عن ثلاثة وستين عاما، حافلة بأجل الأعمال وعظيم الاثر.

فارق (كامل كيلانى٩ الحياة، بعد جهاد طويل، ومعارك كبيرة، بينه وبين المرض المضنى، وكانت الحرب بينهما سجالا، وفى النهاية انتصر المرض، وألم به الموت.

فسبحان من له البقاء، وإليه المرجع والمصير.

ترك (الكيلانى) الدنيا، بعد حياة عريضة: حفلت بالعمل الأدبى فى ميادينه المختلفة: النقد والشعر والقصة، وقد صدرت الصحف فى صبيحة يوم ١٠ من أكتوبر سنة ١٩٥٩، تحمل نعيه، فى عبارات تصور مدى الخسارة التى لحقت

(أسرة القلم) فى عالم البيان، بوفاة (رائد أدب الأطفال) و (نقيب الأدباء) و (بانى الأجيال).

علم من أعلام الأدب العربى المعاصر، استطاع أن يشق طريقه بجهده، وأن يكتب صفحة مشرقة من صفحات العمل الإيجابى البعيد المدى فى حياة الفكر العربى. فقد أسس مدرسة لفن (قصص الاطفال). وكانت طفولته منذ بدايته مثلا يمكن أن يتخذ منهاجا للتربية المنزلية فى تنشئة الطفل، وتكوين الرجل.

فمن وفاء (كامل كيلانى) لوالده الشيخ (كيلانى إبراهيم) أنه أهدى إليه أول كتاب له قائلا:

(رأيتك، منذ حداثتى، تقرأ الكتاب، وتتخذه صاحبا ورفيقا، فحببنى ذلك إلى الكتاب، ومازلت أحبه إلى اليوم.

ولقد طالما سلكت فى تأديبى طريق الوعظ والقص، فكنت أول من حبب لى هذه الفكرة. وكان لك الفضل الأول فى أخذى بهذا الأسلوب وتمكينه من نفسى وكنت نعم القدوة لابنك فى تربيته ولده (مصطفى وإخوته).

فمن هذا الأدب الحكيم أخذ ـ إذن ـ وسيلة تعليم الأطفال، عن طريق القصة والقدوة. وعنه أخذ حب الكتاب، والشغف

بالمطالعة والثقافة. وكان من طبيعته أن يبذل غاية جهده فى سبيل التجويد والكمال لإنتاجه الأدبى.

وكان (كامل كيلانى) وفيا مخلصا لوالديه. فلم يلق عقابا منهما. حتى أنه قال:

(عشت طفولتى وصباى أنتظر (علقة) من أبى).

ثم إن تنشئة الرائد بهذه الصورة الواضحة، ورعايته للأطفال فيما بعد، كانتا ومازالتا مما يحبب الأطفال فى (كامل كيلانى).

وقد كانت وفاته خسارة كبيرة على المجتمع العربى.

مات (كامل كيلانى) وترك للأطفال أدبا حقا، ينير لهم طريق المعرفة، ويوضح لهم معالم الطريق.

ثم إن الشباب الذين كانوا أطفالا، أصبحوا يبكونه أيضا، ويتذكرون فضله عليهم بالأمس واليوم والغد.

وكان (كامل كيلانى) من أبرز كتابنا الذين شاركوا فى النشاط الأدبى ومشاركة بعيدة المدى، أهلته لأن يكون (نقيبا للأدباء) على رأس عدد كبير من الشباب المثقفين الواعين، الذين أصبحوا - من بعد - كتابا لامعين.. فقد اشترك فى

تأسيس جماعة (أبولو) مع الدكتور أحمد زكى أبى شادى وأسهم فى تحرير عدد من الصحف الأدبية. ثم رأى أن يقصر جهده على تنشئة الطفل، حتى أصبح رائدا للأدب القصصى، وبانيا للأجيال..

تقدير الدولة:

إن (كامل كيلانى) مناضل قهر الصعوبات، ومهد الطريق، حتى أكد مهمته كرائد لآداب الأطفال، بالرغم من العوائق والصعاب الطبيعية والمصطنعة.

فلقد عاش فى حاجة إلى التقدير.

إلى تقدير الدولة، وتقدير الأدباء. وفى حاجة إلى الأمان من مكايد القاعدين المتخاذلين. وكان طوال حياته يقوم بعملية تعويض عن هذا التقدير والتشجيع فقد اعتاد أن يذيل كتبه بعبارات التقدير والثناء المستفيض، تلك التى كان يمنحه اياها، الأوفياء من الوطنيين ومن النابهين والعظماء فى الدول الشرقية الشقيقة. ثم أخذ منذ عهد الثورة يعرف الفضل لرجال الثورة، ويسهم فى تحقيق أهداف الثورة.

أما الدولة، فى عهد الثورة، فقد سارعت عقب وفاته، لتمنح اسمه شيئا من التخليد. فأطلقت اسمه على مدرسة ابتدائية

بباب الخلق، بجوار دار الكتب، ورصدت جائزة باسمه لأدب الأطفال، تحت إشراف المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.

وأطلقت المحافظة اسمه على أحد الشوارع بحى شبرا.

وهذا عمل جميل، وتقدير عظيم.

ولى المزيد من الرجاء، والأمل الوطيد، فى مزيد من العناية والرعاية من المسئولين، فيما يأتى:

١ ـ جعل كرسى للأدب العربى وفن القصة فى الجامعات باسمه.

٢ ـ الاحتفال به فى الإذاعة والتليفزيون، فى مختلف المناسبات الداعية إلى ذلك.

٣ ـ إخراج سلسلة من مسرحيات الأطفال، مستوحاة من قصصه الشائقة.

٤ ـ أن يقام له مهرجان أدبى سنوى، كالأدباء الذين يحتفل بهم رسميا، أمثال (الكواكبى) وغيره.

٥ ـ اقامة تمثال (للنقيب الراحل) فى أحد الميادين العامة، اعترافا بفضله، وتخليدا لذكراه (كهانس أندرسون) الدانمركى، ذلك الذى اشتهر فى بلاد العالم، وله فى الدانمرك تماثيل تملأ

الميادين. فلا أقل من جعل تمثال واحد، لأديبنا الراحل، الذى وهب حياته لخدمة الأطفال والناشئة.

والله نسأل المزيد من التوفيق والسداد لخير النشء واعلاء الوطن.

●

أهم المراجع

١ ـ مجلة المقتطف.

٢ ـ محفوظات الأطفال.

٣ ـ مجلة الأخاء.

٤ ـ كتاب فن الكتابة.

٥ ـ نظرات فى تاريخ الإسلام.

٦ ـ صور جديدة من الأدب العربى.

٧ ـ رسالة الغفران.

٨ ـ الشعراء المعاصرون.

٩ ـ مصارع الخلفاء.

١٠ ـ ديوان ابن الرومى.

١١ ـ تاريخ الأدب الأندلسى.

١٢ ـ مجلة العصور.

١٣ ـ مجلة الحديث (بحلب).

١٤ ـ المجلة الجديدة (القاهرة).

١٥ ـ مجلة لغة العرب (بغداد).

١٦ ـ مجلة كوكب الشرق.

١٧ ـ الرسالة.

١٨ ـ أضواء على حياة الادباء.

١٩ ـ مجلة الرسالة الجديدة.

٢٠ ـ الزمان.

٢١ ـ مجلة الدنيا (بيروت).

٢٢ ـ مجلة صوت الشرق.

٢٣ ـ مجلة الاثنين.

٢٤ ـ مجلة الاذاعة.

٢٥ ـ مجلة التربية الحديثة.

٢٦ ـ منير الشرق.

٢٧ ـ رحلات إلى الأقطار الشقيقة.

٢٨ ـ مختارات كامل كيلانى.

٢٩ ـ محفوظات كامل كيلانى.

●



فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٨٨٩ / ٩٩

I . S . B . N 977 - 01 - 6498 - 4

لقد كان اقتحام الأستاذ كامل كيلانى رائد أدب الأطفال لهذا الميدان مغامرة، لأنه كان يشق طريقاً جديداً ويمشى على أرضاً صلبة وله عند كل خطوة عقبة.

ولعل حماسته لروائع الأدب العربى هى التى أوحت إليه أن يقتحم ذلك الميدان، فإنه لما قدم إلى القراء أدب المعرى وابن الرومى وابن زيدون نصوصاً ودراسات. هالهُ أن يجد هذا الأدب مصاغاً إلا عند الخاصة من المتأدبين. فهفت نفسه إلى أن يستمتع بالأدب العربى. أبناء الجيل الجديد من المثقفين ثقافة عامة.

وهداه فكره إلى أن ذلك لا يتحقق الا بتنشئة الطفل تنشئة يتزود فيها بما يقرب إليه تلك المناهل العذاب.

فمضى يكتب للأطفال مؤلفاً ومترجماً ومقتبساً ومقوماً ومفصحاً، فلم يقف الكيلانى عند الشرق يحيى بدائع ألف ليلة وليلة وطرائف جحا وأساطير الهند.

ولم يقتصر على الفكر الغربى يدنى منه فلسفة ابن طفيل فى حى ابن يقظان وأدب ابن جبير وإنما تعدى ذلك إلى أساطير العال

فقدم روبسن كروزو وجيلفر ونخبة من روايات شكسبير

فجاذبية القصة عنده وسيلة لا غاية إلى جانب تو
بشتى المعارف والعلوم مبنياً على ثلاثة أسس: الجانب اللغ
المعنوى الخلقى والجانب الموضوعى.



تصميم الغلاف:

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب